La Folle Allure

Christian Bobin

الملاك الهارب

تأليف

كريستيان بوبان

ترجمة: محمد فطومي

صفحة

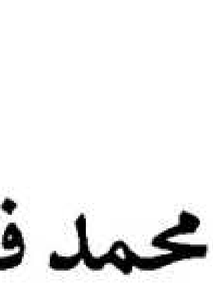

كانت لحُبّي الأوّل أسنانٌ صفراءُ. مَلَأَ عيْنَيَّ في سنّ الثانية أو الثانية والنّصف. انزلق عبر مِحجَرَيّ حتّى قلب الفتاة الصّغيرة حيثُ حفَرَ ثقبا، عُشَّه، وكرَه. إنّه لا يزالُ مُقيما إلى غاية هذه السّاعة التي أحدّثكم فيها. لا أحد استطاع أن يحتلَّ مكانَه. لا أحد استطاع النّزول عميقا مثلما فعلَ. لقد خُضتُ مسيرة العاشقة في سنّ الثانية مع الحبيب الأكثر اعتزازا على الإطلاق: لن يكون اللّاحقون في منزلته ولن يتمكّنوا أبدا. حبّي الأوّل كان ذئبا. ذئبا حقيقيّا بفرو ورائحة وأسنان صفراء في لون العاج وعينيْن صفراوَيْن في لون الميموزا. بُقعٌ كالنّجوم الصّفراء على جبل من الفرو الأسود.

خرج والدَيَّ من المقطورة صارِخَيْن، إنّه اللّيل، أضاءت المقطورات الأخرى الواحدة تلو الأخرى، نزل الجميع، المُهرّج، الفارسة، البهلوان، النّساء، بقيّة الأطفال، جميعُهم في ملابس النّوم أو نصف عراة، راحوا ينادون باسمي، ويُطلّون تحت الشّاحنات للتثبّت إن كنتُ لم أختبئ بدافع اللّعب ثمّ نمت - حدث هذا عديد المرّات -، ابتعدوا ناحية ساحة القرية، نادوا لكن بأصواتٍ أعلى هذه المرّة، بدأت النّوافذ تُضيء في المنازل المُجاورة وبدأ النّاسُ

يغتاظون، صرخوا في حلكة اللّيل، مُهدّدين الحُرّاس. عمّتي هي التي وجدتني. سرعان ما ركضت بين هذا وذاك طالبة منهم الهدوء، وأشارت إليهم بأن يتعقّبوها دون ضجّة: وها أنّ السّرك برُمّته يقترب من البوّابة المُواربة، كنتُ مُمَدّدة على القشّ المُصفرّ من البول مُغمَضة العَيْنَيْن، كان رأسي الصّغير ذو السّنتيْن، مسنودا إلى بطن الذّئب. كنتُ نائمة، غارقةً في نعاسٍ صافٍ وسعيد.

قَدِمَ الذّئبُ من غابات بولونيا. كانوا يعرضونه لاستقطاب المُتفرّجين أثناء إقامة الخيمة. لم يكن يشارك في أيّ استعراض. الذّئب لا يُدَرَّب. كان الناس يصطحبون أطفالهم لرؤية الأميرِ الأسودِ، الوحشِ الرّائعِ، صاحبِ حَكايا الجِنّيات. ما كانوا يخبرونهم بالحقيقة: أنّ هذا الذّئب ودود أكثر من الأرنب، أنّ الفارسة تُقدّم له الطّعام بين كفّيها وأنّه ليس خطِرًا، ما من دمدمة واحدة كانت تندّ عن جبل الفرو والنّجوم. عُلّقت لوحة بأحرف حمراء فوق قفصه: ذئب من منطقة «كراكوفي- Cracovie». كان النّاس مرعوبين من اللاّفتة أكثر من الحيوان الغافي في عمق القفص. لكنّهم كانوا مُبتهجين، كان ذلك برهانا كافيا بالنّسبة إليهم. إنّها الأسماءُ ما يُخيف. لا قيمة للأشياء دون أسماء، إنّها ليست أشياءَ أصلا.

اجتمعتْ كلّ القبيلة هنا، إذًا، في شكل نصف دائريّ أمام الفتاة صاحبة الذّئب. كانوا متّفقين على أنّه لا يُشكّل خطرا، لكنْ هناك حدودٌ، اقترب أبي، دخل القفص، وعندما همّ بأخذي رفع الذّئب رأسَه، الرّأس فحسب، ما من حركة في البطن أو القائمتيْن، كما لو لم

يكن يرغبُ في إيقاظي - ودمدم للمرّة الأولى مُكشّرا عن أسنانه الصّفراء. مُحاولة أخرى من أبي، قابلَته زمجرة أكبر، أكثر وضوحا، وانكشفت الأسنان حتّى اللثّة. تراجعَ أبي والتحق بالبقيّة. تحدّثوا فيما بينهم، وفكّروا. قال مُروِّضُ الأسود: إنّها مهنتي، سأدخل إليه. ردّة الفعل نفسها، اصطكّ الفكّان. فضّل الانتظار. مرّت السّاعاتُ صامتة. كانوا جميعا هناك أمام القفص، مُرتعشين من شدّة البرد، مُتحيّنين غفلة نوم من الذّئب. دام المشهد حتّى الصّباح. كان الذّئبُ يحرُسُ نومي إلى الفجر. عندما فتحتُ عيْنَيَّ التي داعبتها أشّعة النّور الأولى الباردة، تمطّيتُ وحاولتُ النّهوض، ابتعد بهدوء إلى الناحية الأخرى من القفص، ليُصيب قسطا من الراحة المُستَحَقّة. لم أخرج على الفور. رأيتُ شحوب وجوه الآخرين من خلال القضبان، ضحكت، وغنّيت، منتعشة بهذا النّوم النقيّ. تلقّيتُ ضربَتيْن على مُؤخّرتي، وسُجنتُ في المقطورة أسبوعا.

منذ ذلك الحين، صاروا يحرسونني. ويتأكّدون عشر مرّات في اليوم من أنّ القفص مُقفل بإحكام. لم يستطيعوا منعي من قضاء ساعات أمامه. حينَ يخفّ الضّغطُ، كنتُ أسارع بمدّ يدي من خلال القضبان كي أسمَحَ له بلعقها. مساءً قبل النّوم، كان على أبي أن يأخذني بلباس النّوم أمام القفص كي أنظر، لدقائق، إلى العيْنَيْن الشّمسِيَّتَيْن في عتمة اللّيل، كي أُبحِرَ في تلك العَيْنَيْن.

مات الذّئبُ قريبا من «آرل- Arles » كان عمري ثمانية سنوات. جاؤوا يُعلمونني بالخبر بحذر تامّ، كما يتمّ إعلام جنرال بهزيمة

نكراء لكتائبه. لم أقل شيئا. توقّفت القافلة قبل الوصول إلى «آرل» بقليل، في منطقة حافلة بشقائق النّعمان. أخرج الرّجال المجارف، كنتُ أنا من يقود الموكب، اخترتُ من براري شقائق النّعمان المكان الأكثر احمرارا، حفروا الأرض، عبّرتُ لأمّي عن غضبي، استسلمت أخيرا، وقبلوا تنفيذِ أمنيتي، ألقَوا بيجامتي في الحفرة، ولُفّ بها الذّئبُ.

تحسّستُ عطرَها قبل رؤية وجهها. سمعتُ وقع خطواتها على الحصى قبل أن أتحسّسَ عطرها. صخب سيّدة كبيرة، خطوات واثقة، متوتّرة، تيپ تاپ، تيپ تاپ. ثمّ خيّم الصّمت، رائحة بنفسج وتبغ أسمر، مال وجهٌ على وجهي وبدر صوتٌ خشنٌ ممتزجا بشيء كالابتسامة من الدّاخل: ماذا تفعلين هنا، أيّتها الصّغيرة؟

كان ذلك على بعد ثمانية عشر أو خمسة عشر كيلومترا من «آرل». يرقد ذئبي خلف هذه القرية. أو ربّما أسفلها. مشيتُ ساعات دون أن أعثر على مدفن شقائق النّعمان. غادرتُ مساءً، بعد انتهاء العرض. قلتُ لأمّي، إنّي أفضّل النّوم مع الفارسة، في هذه اللّيلة الأولى من موت الذّئب. خرجتُ من المقطورة في لباس نوم جديد لأنّ القديم أصبح تحت التّراب. قبّلتُ والِدَيَّ، نزلتُ الدّرجَتيْن، أوصدتُ الباب بهدوء حتّى لا أوقظ التّوأمَيْن. تظاهرتُ بالذّهاب إلى مُدرّبة الخيول. لا أحد راقبني. كانوا جميعا إمّا في مخادعهم أو أمام التّلفزيون. جلستُ أمام قفص الأسود وانتظرتُ ساعة،

ساعتيْن، أعماق اللّيل. كانت الأسود قد نامت عندما شرعتُ في المسير، في بيجامة وجوارب. كان السّركُ قد استقَرَّ على تخوم «آرل»، كنتُ في الرّيف بعد كيلومتر واحد تقريبا. سأسوّي الأمر في غضون نصف ساعة: كان ذلك كافيا لأودّع ذئبي الوداع الأخير، وأضع على قبره جبلا من الزّهور والفواكه.

لم أستطع، بسبب السّماء القاتمة كالرّماد، سوى أن أقطف زهور الخنادق، الأقلّ توهّجا ممّا أمِلت. أمّا الفواكه فقد سرقتها من الحدائق على امتداد الطّريق، مُتسبّبة كلّ مرّة في حفلة نباح.

الموتى مُسافرون كبار. إنّهم في حاجة إلى الطّعام. لم أشأ لذئبي أن يأكل زهور الخشخاش فحسب. كان كلّ ما في وسعِه أن يُزهِرَ في طريقي قادرا على منحه القوّة التي سيحتاجُ إليها.

أحسستُ بالإعياء من جهة الذّراع. باتت قرابيني أثقل فأثقل. عند مدخل القرية أصبحت الهندباء والخوخ والأقحوان بوزن الرّصاص. قرّرتُ القيام باستراحة، فتسلّقتُ سياجا، وجلستُ على مقعد صخري، بعد أن ألقيتُ نظرة على المنزل: نوافذُ مُقفلة، لا وجود لكلاب، ربّما أمكنني النّوم قليلا. هناك وجدتْني .

ماذا تفعلين هنا، أيّتها الصّغيرة؟ رمقتُ وجهها بتفحُّص قبل أن أجيبها. كانت امرأَة بدينة. إنّ النّساء البدينات يتمتّعن بأكثر الملامح رهافة. نظرتُ إلى العيْنَيْن اللّوزيَّتَيْن، الخدود الخزفيّة، أجبتُ دون أن أسمَعَ إجابتي: اسمي «پرون -Prune »پرون أرماندون. هلاّ قلتِ لي أين أنا؟ يبدو أنّي فعلتُها مثل ذلك المساء، فأنا أمشي أثناء النّوم،

يحدث لي هذا باستمرار، أبي هو من أخبرني بذلك، أنا أعيش معه بمفردي، هلاّ تفضّلتِ بإخباره غدا، هو غيرُ موجود هذه اللّيلة، إنّه يعملُ ولابدّ أنّه في الطّريق. ابتسمتْ، ألقت نظرة على الزّهور والفواكه المُكوّمة على المقعد، بجانب رأسي، مثل وسادة. طمأنتها بيجامتي، ووجدت قصّتي متماسكة. أخذتني من يدي وأدخلتني إلى بيتها. أنتِ متأكّدة من أنّنا لا نستطيعُ الاتّصال بوالِدِك اللّيلة؟ نعم، أنا متأكّدة تماما. أبي رحّالة. إنّه ينقل الحيوانات إلى المسالخ. غادر هذا الصّباح نحو إسبانيا لجلب الثّيران. يجب أن يكون في بلجيكا في هذا الوقت. غدا يعود. نحنُ نقطُن في شارع الورود الأربعة، بجوار بلديّة «آرل». لابدّ أنّي مشيتُ طويلا خلال نومي، أنا متعبة جدّا، هل يُمكنني قضاء اللّيلة في بيتك؟

أيقظني العصفور. حسنا، أعتقد أنّه عصفور. ثمّ قلتُ في نفسي، عصفور يتكلّم الألمانيّة، هذا غريب. كان العصفور «شوبير — Shuber» يُحلّق في أرجاء المنزل دون توقّف، في كلّ الغرف. خرجتُ من الغرفة، قادتني مُضيفتي إلى المطبخ، أحضرت لي الفطور. اتّصلتُ بالمخفر وطلبتُ منهم إخبار والِدِك، سيعاودون الاتّصال بي. كانت رائحتا العطر والتّبغ الأسمر تضوعان منها دائما. كانت تتحدّث مثلما يشدو العصفور: دون توقّف. استمعتُ إليها بانبهار دون إنصات. لاحظتُ هذا: إمّا أن نُحبّ الناسَ فورا أو البتّة. أحببتُها فورا. هي ممرّضة. كانت عائدة من جولة عندما وجدتني في حديقتها. كانت تغرز الحُقَنَ يمينا وشمالا، خلال اليوم، وأحيانا خلال اللّيل في حالات مُستعجلة. تُنفقُ أموالَ الحُقَنِ على

الأسطوانات. كان البيتُ مُجهّزا بالكامل: يُشَغَّلُ بـاغنر في الصّالون وسُرعان ما تغرقُ الغُرفُ في ذهبِ نهر «الرين-Rhin»، والمكتب والصّالون أيضا بفضل مُضخّمات صوت مُوزّعة على كافّة الحجرات. هكذا، قالت، أمشي، آكل وأتحرّك وسط الموسيقى. لدى الأخريات قططٌ وأزواجٌ في البيت. أنا لديَّ فاغنر، رافيل وشوبير. حاضرون في كلّ مكان بخفّة قطّ. ولديَّ زوج، زوجٌ حقيقي، تعالَيْ أريكِ إيّاه. أخذتني من يدي، قادتني نحو باب مُوارب: غرفة بها سرير عالي جدّا، لحافٌ في شكل جسد. دعتني لدخول الغرفة. لن يستيقظ، لقد أخذ مُسكّناته، لن يستيقظ قبل الثانية بعد الظّهر. اقتربتُ وكنتُ خائفة قليلا. رأيتُ وجها غائصا في الوسادة. عدتُ بسرعة إلى الممرّ. نظرت إليَّ المُمرّضة كما لو كانت قد قدّمت لي الهديّة الأفضل في العالم. كما ترينَ صغيرتي، إنّه هو من جعل للموسيقى مذاقا جميلا. كان صانع حلوى، وهو الآن متقاعِد. صادفتُه في إحدى جولاتي، إنّه مريضي الأوّل. كانت لدينا مِهنٌ متشابهة: نحنُ نعتني بالنّاس، هو من جانب الضّحك وأنا من جانب الدّموع. كان يُعاني السّجن. هل تعرفين ماذا يعني السّجن؟ هل رأيتِ خسوفا من قبلُ؟ هكذا يكون: يزحفُ القمر أمام القلب، فلا يعود القلبُ مُضيئا. إنّه اللّيل في قلب النّهار. الحزن رقيق وأسود. لقد شُفي منه نصفيّا: تبدّد السّوادُ وظلّت العذوبة. كان زوجي يُجهّز كعكا مُذهلا، كاتدرائيّات من الشّكلاطة. استمرّ في صنعها من أجلي أحيانا. إن بقيتِ حتّى بعد الظّهيرة، فسأطلب منه صنع المُرطّبات. تدرين، صغيرتي، الحبّ والحلوى متشابهان - إنّها مسألة انتعاش وأن

تتحوّل كلّ المُكوّنات المُصاحبة، حتّى المرّة منها، إلى لذّة خالصة.

لم أكن أفهم كلَّ ما تقوله لي. بل لم أكن أفهم شيئا، أسمَع صوتها الذي تتخلّله العصافير وفجأة أنفجر ضاحكة. ترمقني غيرَ متفاجئة، بل بغبطة .

اتّصل المخفر. ليس هناك «أرماندون» في الدّليل، ولا في أيّ مكان. لم أقل شيئا، تجهّم وجهي. كانت تغمرني الرّغبة في المكوث ساعات أخرى بجوار العصافير الألمانيّة. إنّها المرّة الأولى التي أنصتُ فيها إلى تلك الموسيقى. كانت أغانيَّ ألمانيّة رهيبة. صحيح أنّه في وسع المرء أن يجوب تلك الادعاءات. لقد سادت الحرّية والبهجة مع جزء من القمر على القلب.

انتبهَ والِدَيَّ أخيرا إلى اختفائي. كانت مكالمة واحدة للمخفر كفيلة بأن تنعتهم على عنوان المُمرّضة فتحوّلت القافلة التي اتّخذت الطّريق نحو مدن أخرى إلى أزقّة القرية. رنّ الجرس، دخل أبي وتحدّث إلى الممرّضة في الرّواق، أفادها باسمي الصّحيح، أخذني بين ذراعيْه دون أن يتفوّه بكلمة، شكر الممرّضة وأدخلني إلى المقطورة، دون أن ينطق بكلمة. لم أذق طعم المُرطّبات التي كان سيصنعها الحلواني الحزين من أجلي.

لم أعد أبدا إلى «آرل». أعرف أنّ الموتى ليسوا في الموت، أعرف أنّ الموتى في عالم لا يفصله عن عالمنا سوى خيط رقيق من الضّوء، ألمحُ، أحيانا، رأسَ ذئب يمرُّ بين خيوط الضّوء، أبتسم، أرى العيون الصّفراء وسط النّور الذّهبي.

بدأت رحلتي مع الهروب بعد موت الذّئب. هذا ما كان يدّعيه والِدَيَّ. ظننتُ أنّها قد بدأت قبل ذلك بكثير. لكنّها لم تكن جليّة. قضاء ساعات في تأمّل النّار التي تنبعث من عيْنَيْ ذئب، هو الرّحيل إلى أقصى العالم. اليوم أيضا، عندما أريدُ السّفر من خلال غرفتي ذات الجدران البيضاء، فإنّي أقترب من النّافذة وأحدّق في السّماء طويلا، أطول وقت ممكن، حتّى أميّز شيئا ما يُشبه نار الذّئب ورقّته. أراقب وجوه أحبّتي كما أنظر إلى ذلك الجزء من السّماء. كنتُ دائما أبحث فيها عن الشّيء نفسه: كان الذّئبُ هو ما يُطمئنني في الإنسان. أعرف ما حصل في بولونيا سنة ألف وتسع مائة وأربعين. روت لي جدّتي كلّ ذلك: لكلّ منّا حكايات طفولته، لكلّ منّا لحيتُه الزّرقاء[1]. أعرف كلَّ ما تعرّض له اليهود والغجر والمثليّون الجنسيّون والآخرون، وأعرف أنّها أشياء إنسانيّة لا قِبَل لأيّ ذئب باقترافها .

ثمّة ثلاثة فصائل في العالم: البدوُ الرُحَّل، المقيمون، والأطفال.

---

(1) . اللّحية الزرقاء (Barbe Beue): هو عنوان حكاية شعبيّة ظهرت نُسختها الأشهر على يد شارل بيرو سنة 1697، في مجموعة حكايات الأمّ لُووي، وهو أيضا اسمُ الشّخصيّة الرّئيسة في القصّة.

أذكُر إخوتي الأطفال، وإخوتي الذّئاب، ما زلتُ واحدة منهم برابطة الدّم والتصوّرات.

بدأتُ، إذًا، بالولادة في سنّ السنتيْن، سنتيْن ونصف، في مهد ذئب. قبل ذلك، لا أعرف شيئا ولا أودّ معرفته. قبل ذلك كنتُ سابحة في فترة انتظار. كان والِدَايَ يعتنيان بي، يُقدّمان لي ما يلزم من حليب وخبز وضحك. حين أقول «الوالدان»، فليس القصدُ الأب والأمّ فحسب. كان أبي رجلا يُتقن القيام بكلّ شيء في السّرك. كانت ذراعاه مكسُوّتان بالعضلات، بمعصميْن قويّين جدّا وأظفار سوداء: إذا أردتُ تذكّره، لا يلوح لي وجهه أوّلا، إنّما الذّراعان والمعصمَان والكفّان. - كلَّ ما يلزم لحملي، طبعا لم أكن أثقل بتاتا من الكرات المُزركشة التي تتدحرج تحت قوائم الدُبّ. كان متعرّقا باستمرار، زاحفا على الدّوام تحت مُحرّك الشّاحنة، ويتحرّك كشبح تحت قماش الخيمة المطوي، دائما بصدد رفع صناديق وإطارات مطّاطيّة وألواح مُختلفة. كنتُ استراحَتَه. حين ينال منه الإنهاك من رفع أطنان وأطنان من الموادّ، كان يحملني ضاحكا ليقذف في الهواء قلبي الذي لا يزن سوى بضع غرامات، يتلقّفني قرب الأرض ويُمطرني قبلا لذيذة حامضة، مُغمّسة في العرق. أمّا أمّي فقد كنتُ أسمع ضحكاتها. كان ضحكها يصدح في كلّ مكان من دائرة المقطورات. كانت طائر جُزُرٍ. نعم، هو ذاك: ضحكة أمّي التي تملأ العالم بأسره حالما تنطلق، كما يُحسن القيام بذلك شدو طائر يغزو الغابة دفعة واحدة بمفرده، من الأرض المُغطّاة بالأوراق الدّاكنة إلى السّماء المُلوّنة بالرّمادي المزرقّ.

أظنّ أنّ أمّي مجنونة. أتمنّى لكلّ أطفال العالم أمّا مجنونة، إنّهنّ أفضل أمّهات، والأكثر مواءمة لقلوب الأطفال الهائجة. استمدّت جنونها من بلدها الأوّل إيطاليا. في إيطاليا، ما هو في الدّاخل يضعونه في الخارج. يجفّفون غسيلهم ويغسلون قلوبهم، يضعون كلَّ شيء في الشّارع على حبل بين نافذتيْن، ويقومون بالجرد عديد المرّات في اليوم، أمام الجيران، وسط كرنفال من الصّراخ والضّحك. في الظّاهر كان ذلك بهيجا - في الظّاهر فقط. الإيطاليّون أناسٌ حزانى، إنّهم يحاكون الحياة كي يتسنّى لهم أن يُحبّوها حقيقة، ينبعث منهم الموت والمسرح: أبي هو من يقول ذلك كلّما أراد إثارة أعصاب أمّي. أجهل اسم البلد الذي جاء منه أبي. وطنُ أبي هو الصّمت. أبي هو كلّ الرّجال حين يعودون إلى البيت مساءً. كائنات صموتة. أشخاصٌ بلا كلمات. أبي مثل ذئب: تصعد النّار التي تجري في عروقه إلى عيْنَيْه، ولا شيء إلى شفتيْه.

أمّي مثل قطّة، مثل عصفور دوريّ، مثل نبتة لبلاب، مثل الملح، مثل الثّلج، مثل حبّات لقاح الزّهور. مُروّض الجياد مُغرمٌ بأمّي. المهرّج مُغرم بأمّي. مُروّض الأسود مُغرم بأمّي. كلّ من في العشيرة مُغرم بأمّي، وهي تسمَحُ بذلك، لا شيء أفضلُ من ترك تلك الحرائق تنشب من حولها، كي تحافظ على أبي. يقوم الحبّ بدائرة مثل دائرة السّرك، مفروشا بالنّشارة، ناعما على القدميْن، مُضيئا تحت القُماش الأحمر المنتفخ بالرّيح. دائرة بسيطة: كلّما كنتَ محبوبا كلّما أحبّك النّاسُ أكثر. السرّ في المرّة الأولى، في جعل الناس يحبّونك منذ البداية. على المرء ألاّ يُفكّر في ذلك أو يسعى إليه، أو يرغب فيه. أن

تكون مجنونة، أن تكتفي بأن تكون مجنونة، أن تضحك باكية، أن تبكي ضاحكة، سينتهي الأمر بمجيء الرّجال، تجذبهم فسحة الجنون، تُغويهم تلك التي لا تهتمّ بإثارة الإعجاب من حولها. بعد ذلك، تكون اللّعبة قد انطلقت، ستدور وتُغنّي في دائرة الحبّ، زوج في متناول اليدين حتّى لا تفقد توازنك، زوجٌ يجوس بعيْنيه في صمت.

ما أشرتُ إليه هنا، هو جزء من والِدَيَّ. يا عائلةً من رحّالة بائسين، أراكم ضعفاء، ضعفاء إلى حدّ مثير للشّفقة. أب واحد وأمّ واحدة، أعتقد أنّهما لا يكفيان. كي يرافقوا طفلا خلال مغامرته الطفوليّة، عليهم أن يكونوا عشرة على الأقلّ أو عشرين. وهذا ما حصلتُ عليه: حين لا يلائمني والدايَ أطرق باب المُهرّج أو البهلوان، أختار والِدَيْن آخريْن أسبوعا أو اثنيْن. كبرتُ في ثلاثة عشرة بيتا معا. إذا أردتُ أن أضع تواريخ لعمليّات الهرب فالأجدر أن أبدأ من هنا.

نسيتُ أن أُخبركم باسمي. حسنا، اسمي «أورور–Aurore»، الآن تعرفون كلَّ شيء. لا، أنا أمزح: اسمي بلّادون. وأيضا: ماري، لودميلا، أنجل، إيميلي، أستري، باربارا، أماند، كاترين، بلانش. أمزح، إنّه أمر أقوى منّي. كلّما كان الأمر خطِرًا، كلّما ازدادت رغبتي في الضّحك. ينزل عليك لقب العائلة حالما تولَد، ويزداد ثقلا مع تقدّمك في العمر، مثل الرّذاذ التي يتسلّل عبر الملابس الخشنة. سرعان ما تعلّمتُ ابتكار تلك الأسماء. كان ذلك يساهم في تضليل الشّرطة حتّى لا يعرفوا اسم العائلة، ويمنحني وقتا إضافيّا للمراوغة. كنتُ دائما في حاجة إلى الوقت لأنجز ما أريد: لا شيء. التّحديق والتّحديق والتّحديق. في وسع الرّجال الذين يحسبون أنّهم عرفوني، أن يتحدّثوا عنّي خلال لقاءاتهم ساعات طويلة، دون أن يتفطّنوا إلى أنّهم يقصدون الشّخصَ نفسَه: أتقدّم لكلّ منهم باسم جديد، كما تغيّر المرأة فستانا أو عطرا. وطبعا، لم أكن أصرّح باسمي الحقيقي، ثمّ ماذا يمكن أن يُمثّل اسمٌ حقيقي؟ لطالما أحببتُ قصّة المسيح الذي كان يُقيم صداقات أثناء جولته، يسألهم عن أسماء عائلاتهم، ويقول لهم بوقاحة لا تُصدَّقُ: سيكون اسمُك كذا من هنا

فصاعدا. أن تمنح اسما جديدا هو بمثابة ضخّ دم جديد: فعلُ حبّ، إنّه ما يُميِّزُ العاشقين. لَكُمْ، سأختارُ اسما شاملا، جرّبتُه أمام مرآة الورقة وراقني كثيرا: هروب. إنّه الاسم الأقرب إلى قلبي، والكلام بيننا، إنّه يمنحني القدرة على كتابة جُمل رائعة. تخيّلوا: «أخذت الصّغيرة هروب في الرّكض بين الحشائش العالية».

بفضل مهنةِ أبي الثانية، خالطتُ العديد من المقابر. بل لقد أُغرمتُ هناك بالكتابة: إنّ بلاطَ القبرِ الرخامي يُشبه أغلفة الكتب. الشّكل المُستطيل نفسه. الاقتضاب في المعلومات ذاته. أحيانا جُملة قصيرة، كالتي نجدها على اللاّفتات الدّعائيّة الحمراء: إليك إلى الأبد. عنوان الكتاب بالنّسبة إلى الموتى هو اسمُ العائلة، إنّه هناك كي يختزل كلَّ شيء. أردتُ أن أعيش حياة لا يُمكن اختزالها، حياة مثل الموسيقى - لا كالمرمر أو الورق.

مع ذلك أستطيعُ أن أبوح لكم باسمي. الاسمُ الأوّل أخفُّ دائما، وأوفر راحة: «لوسي». إنّه مُشتقّ من النّور. لم أفعل إذًا، وأنا أتحرّكُ دون توقّف، سوى اتّباع أمّي الروحيّة في ذهابها وإيّابها الذي لا يهدأ ولا يكلّ. النور أمّي.

أكتب في السّادسة صباحا. النّزل صامت. أنا هنا منذ خمسة عشر يوما. كنتُ أبحث عن مكان لا يحدث فيه شيء على الإطلاق. عثرتُ عليه. نزل النّحل، قريبا من «فونسين-لو-با Foncine Le Bas»، في مقاطعة «جورا-Jura» أحب النّحل كثيرا. توقّفتُ هنا كي أصنع عسل الحبر والوحدة والصّمت. لابدّ أنّهم يُفتّشون عنّي

في كلّ مكان هناك في باريس. الأرجح أنّهم تلقّوا مكالمة من المطار، تُخبرهم بغيابي. لا يمكن للتّصوير أن يتمّ من دوني: هذا ما كانوا يقولونه. غير معقول ما قد يُقال كي نُمسك النّاس عن السّفر – وغير معقول تصديق النّاس للحماقات التي نقولها لهم. عزيزتي الرّقيقة، أنتِ هنا أجملُ وأفضل. أنت مُهمّة جدّا. ثمّ ماذا أيضا. أثار أوّل فِلْمٍ إعجاب النُقّاد. لم ألعب سوى دورٍ ثانويّ، مع ذلك كان جلّ الحديث عنّي. سيكون الثّاني نجاحا باهرا دون شكّ. سيكون التّصوير في كندا. لن يكون هناك دورٌ ثانٍ. أخذتُ الأموال من الأوّل، وخمّنتُ أنّه يكفيني للعيش في «جورا» ثلاث سنوات. ربّما أربعًا. سأتدبّر أمري بعد ذلك. أسمعهم من مكاني هنا. غير مسؤولة، طائشة، ماكرة، فتاة قذرة. لا يجدون الكلمة الصّحيحة. الكلمة الوحيدة التي لا وجود لها في قاموسهم لأنّها لا توجَدُ في حياتهم: حُرّة. من السّادسة إلى السّابعة صباحا، وأنا أتجاوزُ نافذة من الورق الأبيض، أخرجُ وأدخُلُ بعد تقبيل ذئب، بعد ممارسة أبسط الحقوق لكلّ شخص حيّ على وجه الأرض: الاختفاء دون إعلام أحد بسبب اختفائه. الكتابة هي أحد أوجه الاختفاء، ثرثارة قليلا، لكنّها ناجعة.

لستُ وحدي. الضّخم معي. يُحدّثني وأسمعه. الغرفة ضيّقة لكنّ الضّخم لم يكن يأخذ حيّزًا كبيرا: إنّه يسكن شريط "كاسات" وآلة تسجيل. الكبير هو باخ. جون سيباستيان باخ. اعتمدتُ دائما على الذين منحوني شيئا ما، والضّخم أعطاني الكثير في أواسط عمري. هل رأيتم صورة لباخ قبل الآن؟ يُذكّرني، ببطنه المُكوّر،

بقطّة على مشارف الولادة. لابدّ أنّ روحه مثل جسده. كانت روحه ضخمة مثل بطن يحتوي على آلاف القطط الصّغيرة، لقد أنجب، على امتداد حياته، العديد من النّوتات. إنّ الحاجة إلى الخلق في الرّوح كحاجة الجسد إلى الأكل. الرّوح جوع. تعلّمتُ مع مرور الوقت التّمييز بين صنفَيْن من المخلوقات، فقط صِنفَان: النّحيف والضّخم. المُنسجمون مع الاختزال، يهزلون، لمسات خفيفة: جياكوميتي، پاسكال، سيزان. والذين يعملون بالمراكمة، الزّيادة والنّهم: مونينْي، بيكاسو. وباخ هذا، السّمين المليء بالنّوتات. إن كنتُ أفضّل موسيقاه على الآخرين، فذلك لأنّها تنبعث من الأحاسيس. لا حزن، ولا حسرة ولا شجن: رياضيّات فحسب، نوتات كدقّات نوّاس السّاعة.

كالحياة التي تمضي في الحياة .

بدأت أمّي تطرحُ جلدَها. في البداية لم ألاحظ شيئا عدا لون وجنتيْها: بالأمس، كالقمر بيضاء بلون الحليب، اليوم، ورديّة كالخوخ. ثمّ انتقلت العدوى إلى عيْنيْها: غصنا طائرا كلَّ يوم، توهّجا لا يُشبه شيئا، حجرا صغيرا من حماسٍ كما ننتظر عيد الميلاد أو عندما نشرب الشمبانيا في المهرجان.

كانت غرفتي في المقطورة بمثابة حجرة كلب، تقعُ أعلى قمرة قيادة الشّاحنة. مساءً، بعد مراسم دفن الذّئب، دخلتُ فراشي ورحتُ أنظر إلى السّماء من النّافذة البيضاويّة، الصّغيرة، المُقتطعة من السّقف. أعرف أسماء النّجوم. أعرف أعمارها أيضا. عندما علّمني إيّاها المُهرّج، كنتُ نصف مندهشة: إنّ لها المرح نفسه الذي لا يبدر سوى من النّساء العجائز. تأمّلتها طويلا إلى أن ثقلت جفوني. كنتُ كلّما حدّقتُ فيها إلاّ وتوهّجت أكثر، كما لو كان ذلك استجابة لقانون تأنّق الضّوء. لم أكن، إذًا، أشاهد أمرا غريبا في ذلك الجمال المتزايد للنّجمة الأمّ: محبوبة كما هي، لم تكن تفعل شيئا سوى أن تعيد للعالم النّور الذي يمنحها إيّاه.

انتبهتُ حقيقة، عندما نزل الجمالُ إلى الجسد الأمّ فبدأ بالتحوّل ببطء، بعد أن غزا الوجه واحتدّ. كانت أمّي دائما بطيئة. عندما كانت تقول لنا إنّ علينا الجلوس إلى الطّاولة سريعا، كنّا نعرف أنا وأبي أنّ هذا يعني: الخضر لم تُقطّع بعد والبطاطا لم تُلقَ في إناء الماء الذي لم يبدأ بالغليان بعد، وأنّنا سنأكل بعد ساعتَيْن إن سارت الأمور على أفضل وجه. لكنّي لم أرَها أبطأ ممّا هي عليه الآن. وفوق ذلك صارت بدينة: بدينة إلى درجة أنّها كانت عاجزة عن الإمساك بصندوق بيع التّذاكر -كانت الكابينة ضيّقة عليها-. ما صدمني هو امتزاج هذين التحوّلَيْن: بدينة وصاحبة نفوذ. ثقيلة ورائعة. لدينا ثلاثة فيلةٍ في السِّرك. اثنان ضخمَا الجثّة وواحد صغير. أخشى أن تبلغ أمّي جثّة الأضخم بينهم.

أعرف ما يجري، ولا أعرف . في الثّالثة صرتُ مثل بيت ذي غرفتَيْن: ألعب وأفكّر في الأولى. وأرفض دخول الثّانية لأنّي أعرف جيّدا جدرانها وسقفها، وأعرف أكثر ما في داخلها لأنّي أنا من ألقاه هناك. في الغرفة الثانية، الغرفة السفليّة، ألقي ما أراه وما لا يُناسبني. كقدوم أخ صغير مثلا.

حسنا، ماذا سأقول: المأساة لا تأتي وحدها أبدا. جاء الأخ الصّغير وبعد دقائق لحقه آخر. مأزقان يتململان، وحده الله يعلَمُ، ما الذي يسحَرُ العشيرة في عُوائهما. سمّيتُهما پليك و پلوك. وقرّرتُ على نحو سيادي أن أسمح لپليك و پلوك بالإقامة في مملكتي، بصورة مُؤقّتة. مرّت الأشهر. أترقّب وألاحظ. أنا زوجة الذّئب

ومُربّية پليك وپلوك. لقد تغيّر والدايَ لكن لم يَفسد الباقي الذي هو كلّ شيء تقريبا: رقّة يديْ البهلوان على جبيني، عطر زهر العسل وطعم الفراولة المُغمّسة في القشدة، همسُ النّجوم وبرودُ ذئبي، السِّحرُ الوردي للمدن التي نصل إليها فجرا. فعلاً، لم يُدمّر پليك وپلوك المملكة.

صار لديَّ سبعة أعوام فيما هما في الرّابعة. عهدوا إليّ بهما مدّة ساعة. حشدتُ فرقتي. ثمّة جوسي، ابن مُروّض الأسُود، وابنَيْ عمّ، كلارنس وسيليا، بنتا مُدرّبة الخيول. أخذنا پليك وپلوك إلى المغسل خلف الكنيسة. فكّرنا في أنّه حان الوقت لتعميدِهما. وسَّع الصّغيران من خطواتهما، فخورَيْن لأنّهما يتقدّمان الموكب. لدى وصولنا أمام المغسل رحنا ننشد «أبانا» ثمّ ألقينا التّوأميْن في الماء الأخضر المغمور بالرّغوة. سرعان ما جاء أبي، ذراعان ذاتَيْ شعر كثيف كالقنادس، تُغمس في الماء وتُخرجُ كومَتيْن من الملابس الصّارخة، يدان كالعِصيّ تُوزّعان الصّفعات في الهواء. في اليوم الموالي، دُعينا للمثول أمام المحكمة، تحت الخيمة. جلس الكبارُ في المُدرّجات. وضعونا وسط الدّائرة وشرعوا يُلقون علينا الدّرس. جاء دورُ السّؤال الحاسم: ما الذي حملكم على تعميدهما كما قلتُم؟ أجبنا معا: المُهرّج. إنّه هو من روى لنا حكاية تعميد المسيح في مياه نهر الأردن، والحمامة التي كانت تحوم حول رأسه، أردنا رؤية الحمامة (الأرواح الخمسة) على رأسَيْ التّوأمَيْن، انتظرنا قدومها بعد الحمّام. اتّجهت كلّ الأنظار نحو المُهرّج، المسكين. انتهت للتوّ مسيرة مُعلّم متألّق.

لم نكن نتوقّف في القرى سوى يومَيْن أو ثلاثة، فترة لم تكن كافية لمقابلة كاهن، أو لمتابعة الدّروس في المدرسة: التّعليم، مثل كلّ شيء آخر، هو العائلة. كان المُهرّج هو من يُلقّننا المسيحيّة، ويُعلّمنا ما يجدر بنا معرفته إذا جاء اليوم الموعود، كي نتشارك في احتفاليّة نلبسُ فيها الفساتين البيضاء كنساء المسيح. كان يجمعنا في المقطورة، ساعة كلَّ أسبوع بداية الظّهيرة، وكان يفتَحُ إنجيله. أحيانا كان يأتينا بزينة التنكّر مُرتديا بدلة العرض. لم يكن يبدو لي ذلك مُضحكا، أنا معتادة على رؤيته على ذلك النّحو، ثمّ إنّ المُهرّجين أرعبوني دائما – أو الأحرى: كانوا يُصيبونني بالهموم. نعم، لقد قلقتُ دائما بشأن المُهرّجين، كنتُ دائما أخشى إخفاقهم في العرض، ألاّ يضحك أحد مثلا، بدا لي ذلك أفظع من السّقوط من أعلى الأرجوحة. عرضُ المُهرّج عنيف، بل لقد صُمّمَ من عنف، لو أمعنّا النّظر: السّقوط، النّهوض، السّقوط مُجدّدا، البكاء، التظاهر بالحمق كي يثير حوله شرور العالم بأسره، وفي اللّحظة التي تكادُ تسحقك فيها، تُستَبْدَلُ بالضّحك. أرى أنّ الأمرَيْن منسجِمَيْن تماما، لباسُه المُضحك وحكاية الإنجيل. كان يقرأ وأحيانا يقوم بإيماءات. كان في منتهى الجمال حين يُقلّد المرأة ذات العطر، بذراعيْها المرنتَيْن كأوراق الأشجار، بأكمامه المُرقّطة الطّافية في الهواء، كان يوحي لنا برؤية شعر المرأة، وكيف أنّها انحنت في حضرة المسيح، كيف مدّت شعرها الطّويل، الطّويل جدّا، تحت قدَمَيْ الشابّ.

لم نتلقّى دروسا في المسيحيّة منذ واقعة التّعميد في المغسل. بقيتُ هناك، إذًا، فيما يتعلّق بالدّين، في ذلك الثّالوث المُذهل: عطر، أقدام

حافية، شعر.

فيمَا كانت الفتيات الصّغيرات تحلُم في السّرير: بعيْنَيْ ذئب الأمير الوسيم، بالقُدّاس المسكين مثل المهرّج وبالشّعر الطّويل الذي ستحظَيْن به يوما.

الخامسة والرّبع نهارا. أستيقظ وأجهّز نفسي كأنّي أستعدّ لحفلة. نظافة قطّ، منشفة مبلولة على الوجه، سأستحمّ عند نهاية الظّهيرة، لن أضع عطرا، سألقي نظرة على خزانة الملابس، أتردّد، أقرّر ارتداء فستان أزرق وأذهب إلى الصّفحات البيضاء مثلما كنتُ أذهب إلى الماء فيما مضى، واثقة ومسرورة. جملَتان أو ثلاثة لتحسين المزاج، سيكون ذلك مُجديا، عندها فقط أغوص في البياض الذي سيلفّني بالكامل، وحده الرّأس يظلّ في الأعلى، أبتعد عن الكرسيّ، عن الطّاولة، النّزل نقطة في النّهر، أسبحُ، يُهدهدني حديث القلم على الورقة، عبر أمواج الحبر الأسود التي تجيء وتنسحب.

أستيقظ مُبكّرة، وأخلد إلى النّوم متأخّرة. يأخذني الضّخم إلى النّوم وهو الذي يجعلني أستفيق. أتدارك نقص النّوم عند الظّهيرة. لا حاجة لي بأوقات الظّهيرة. وحدَه الصّباحُ تغيّر. لقد هجرتُه منذ زمن. لم أعد أنهض من الفراش سوى عند الحادية عشرة، ما أفزع أبي جدّا. ابنتك تسلك طريقك، قال لأمّي. كانت أمّي هاوية نوم فريدة. تشدو الطّيور عند الفجر. كان أبي أحدها. أتساءل اليوم فيما إذا كان هذا الفرق الكبير في الطّبائع أخطر من الطّلاق. تعلّمتُ هذا

وأنا أستمع إلى الضّخم: السّعادة ليست نوتة طائشة، إنّها نشوة ارتداد نوتة على أخرى. المأساة هي النّشاز، لأنّ نوتتك ونوتة غيرك ليستا منسجمَتَيْن. التّباعد الأكبر بين الناس يكمن في ذلك وليس في أمر آخر: إنّه في الإيقاع.

عرفتُ بالفطرة الذين ينهضون مع بداية اليوم، حتّى أيّام عُطلهم، والذين يظلّون في الفراش قرونا. فورا توجّستُ خيفة من الفئة الأولى. تحشيتُ دائما أولئك الذين يسعَون وراء الحياة كما لو كان الأهمّ هو القيام بالأشياء، بسرعة وبأكبر قدر ممكن. كانت أمّي محبوبة إلى درجة أنّها لم تكن مُضطرّة إلى أن تشغل بحضورها كامل ساعات اليوم. يُقال إنّ العالم ملكٌ للذين يستيقظون باكرا. يجعلوننا نفهم ذلك، إنّهم يتصرّفون باعتزاز. لكن حين يُحبّنا الناس فلا حاجة للاكتراث بالعالم، لسنا في حاجة كبيرة للقيام بأيّ دور. تسبَحُ أمّي في نهر من الحبّ. احتفى بها والِداها. تُثير إعجاب الرّجال. ليس عليها أن تثبت شيئا أو أن تُشيّدَه. يُمكنها البقاء في الفراش ساعات غير معقولة. فهي لا تُؤمن بالعالم، أمّي في الأعلى وأنا ابنتها. إنّها لا تُؤمن سوى بالحبّ وحين لا يؤمن المرء بغير الحبّ، فإنّ مزاجُه الصّباحي لا يسعفه عادة، يُحبّذ البقاء تحت الغطاء لأنّ الحبّ يختبئ هناك، أو لأنّه لا يوجد هناك... فيوجده.

إن كنتُ اليوم أستيقظ قبل الطّيور، فذلك من باب النّهم. أمرّ من الفراش إلى الحبر، الأمر سيّان، بل إنّ ذلك يُريحني. مثل الضّخم تماما: لقد كتب آلاف النوتات، لم يتعثّر أبدا. مقطوعات، سوناتا،

موسيقى جنائزيّة، كونشرتو، أناشيد، تجتمع كلّها وتتكرّر على نحو ساحر، لم يخرج عن طبيعته يوما، لم يُصدّق يوما ما يُنشده المُستيقظون باكرا: التعنّت والعنف والخروج عن الذات للمُضيّ نحو العالم. ما انفكّ الضّخم ينام في الفقاقيع والنوتات والهواء.

لو تأمّلنا صُوَر باخ، يمكننا رؤية قطّ كبير، لكن حوتٍ أيضا.

عندما أنصت إلى موسيقاه فكأنّي أنزلق برأسي في الحوض، تحت الماء، مُصغية إلى الأصوات القادمة من الخارج.

الذين يحومون حول الفراش أو الحمّام مُتشابهون. إنّهم يفسحون لقلوبهم المجال كي تلتقط غناء الحيتان الزّرقاء، إنه الهروب الملكي للوقت المُتسلّل.

من سنّ الثّامنة حتّى العاشرة مارستُ بإخلاص مهنة الهروب. لم تكن القافلة ترحل من دوني. الأطفالُ الآخرون مُكلَّفون بحراستي. أحببتُ هذه اللّعبة كثيرا. إنّها تُشبه الحياة. إنّها الحياةُ نفسُها: الظّهور والاختفاء. يكذب الأطفالُ برحابة صدر حين يسألهم الكبارُ عن تحرّكاتي. شرحتُ لهم. قلتُ لهم إنّي تحوّلتُ إلى مُتمرّدة. عثرتُ على هذه الكلمة في الكلام المُشوّش الذي نطق به مروّض الأسود عن الخمرة والبطولة، عندما كان يتحدّث عن وقائع الحرب في إسبانيا. أجهل أيّ حرب هي المقصودة، لم أكن أفهم شيئا، عدا أنّ كلّ ثانية تمرّ كانت ستحمل إليكَ الموت أو السّعادة الخالصة لأنّك نجوتَ منها - إلى غاية الثّانية التي بعدها حين يُستأنَفُ كلُّ شيء. قرّرتُ استخدام كلَّ ثانية على هذا النّحو. أستخدم، ليست كلمة مرحة: قرّرتُ المرور من ثانية إلى أخرى كما نقفز من صخرة إلى أخرى، كي نعبر نهرا عميقا. مُبَلَّلة ومنتعشة. لكن أبدا لا غرق.

لم أعد أتحدّث مع والِدَيَّ عن الذّئب. لا أقول لهما شيئا عن الطّيور الألمانيّة وعن رغبتي في قطع دروب أخرى في الحياة، كلّ الحيوات في كلّ البيوت. استخلصوا أنّ نزواتي قد مرّت. أفظع الخونة هما

التوأمان. كانا مُتعلّقين بي ويتبعانني في كلّ مكان. تظليلي لهم حكاية طويلة. لا أريد أخذهما معي في محاولاتي للهروب. أخمّن أنْ لا أحد سيُعجِبَه الأمر. فتاة في الطّبيعة، هذا جائز، إنّها هكذا، سينتهي الحالُ بالعثور عليها. لكنّ التّوأميْن كانا مركز حبّ كبير لا قِبَل لي بمواجهته دون أن أعرّض نفسي للخطر. عندما كان يُعثَرُ عليَّ، كان أبي يسحبني صارخا بمحاذاة جدول ماء واضعا رأسي تحت الدّفق، طويلا -كي يُلقّنني درسًا- كما كان يقول. لا أفهم أبدا ما الذي قد يتعلّمه طفل وهم يصرخون في وجهه ويضعون رأسه تحت الماء البارد. بما أنّي لم آخذْ معي التّوأميْن في مغامراتي، فمن المستبعد أن يكون هناك صراخ أو حمّام بارد: فقط صمتُ أبي الأسودُ، فقط نظرته المُحنّطة وشفتاه المُطبقتان، وهذا هو أقسى ما يمكن وقوعه على الإطلاق.

أخبرني المُهرّج يوما أنّ أمّي كان تنفجر ضاحكة حين تسمع أنّ الصّغيرة استأنفت، وأنّها رحلت. كان ذلك الضّحك مواسيا، إنّه يُطمئنني في الأعماق. مستظلّة بالضحك، يُمكنني الرّكض طويلا تحت أشعّة الشّمس. صمتُ أبي خلع/ تجرّد/ عراء/ تحرير تامّ/ سفر مطلق. ضحكات أمّي جوازُ إقامة/ سفر/ بطاقة إقامة.

اثنا عشر هروبا بين سنّ الثّامنة والعاشرة. والعديد من الأسماء المُستعارة. في «غرو-دي-روا» اسمي هو «إيرين پاسكيرون». إنّه اسمٌ لا يصلحُ لشيء، إذ لا أحد حدّثني هناك. تسكّعتُ يوميْن وليلَتيْن على الشّاطئ. كان غذائي وجبات في قاع أكياس المصطافين.

صباحا، أنام في كوخ، قريبا من الميناء القديم. أسأم بعد الظّهيرة: العُطلة مهنة، لا شيء أسهل منها. أتأمّل العائلات والأزواج. قلّة هم الوحيدون. ربّما، لا يحقّ للمُنفردين الاستمتاع بعطلة. أو لعلّهم لا يحتاجون إلى راحة من أيّ شيء. أرى النّاس يمشون في جماعات كالعناقيد. أراهم يملؤون في رويّة وحرص ساعات اللّيل والنهار بإتيان أكبر عدد ممكن من خرجات السّباحة، القيلولة، الشّراءات، ولا شيء على شرفات المقاهي. ضجرتُ إلى غاية المساء الثّاني الذي استوقفني فيه الجنود بعد المرور من أمامهم ثلاث مرّات. أخبرتُهم أنّهم مُخطئون، وأنّي لستُ تائهة، حتّى إنّ والِدَيَّ وأخواتي يسبقونني على مسافة مئتيْ متر، أنا فقط أنكّد عليهم لأنّنا تخاصمنا، وركضتُ للّحاق بأهلي المُفترَضين، عنوة أخذتُ امرأة من يدها، استدارت نحوي مُندهشة: لا تنزعجي، أحتاجُ أمًّا لثانِيَتَيْن، سأتركك بعدها. لاحظ الجنود من بعيد مكر الطّفلة، ركبوا سيّارتهم وابتعدوا. أريد الذّهاب بدوري، لكنّ السيّدة لم تفلت يدي، كانت بناتها ينظرن إليَّ بارتياب وسألني الأب: أين والِداكِ أيّتها الصّغيرة؟ أشرتُ بإصبعي في الهواء، نحو النّجوم. هناك في الأعلى، سيّدي، إنّهما هناك ويجب أن ألتحق بهما. رفعوا رؤوسهم، قرّبتُ يد المرأة من فمي، وعضضتُها. صرخت، وفررتُ صوب الشّاطئ المُقفر في تلك السّاعة. استنشقتُ الهواء وغنّيتُ. سبحتُ تحت النّجوم، عارية مثلها. داخل الماء الأزرق المسودّ، سرعان ما غابت الضّفة عن بصري وخشيتُ أن أتّخذ الاتّجاه الخطأ. لابدّ أنّ الموت يُشبه هذا: السّباحة في الظّلام دون أن يُناديك أحد. لم أمت، أُصبتُ بنزلة برد

وعدتُ إلى السّرك بعَيْنَيْن متورّمَتَيْن وأنف أحمر.

السّركُ في ليوموج منذ يومَيْن. لعبتُ لعبة الحجلة بمحاذاة قفص الأسود. أغانيّ تجعل رأسي يدور: قافلة أناسٍ في عُطلة. ثلاثة كبار في المُقدّمة والأطفال في الصفّ الأخير، يُغنّون بتناغم تامّ. ثمّ رأيتُ تراجُعا مُرتبكا من قِبَل المارّة، حدّقتُ مليّا: إنّهم مجانين. كانوا مجانين يأخذونهم في نزهة. أعرف أنّه لا يجوز القول بأنّهم مجانين بل مُختلّون ذهنيّا أو شيء من هذا القبيل. لكنّي أفضّل كلمة مجنون. إنّها أسرع ولديها رنّة رقيقة. لم أكن أخاف منهم. أعرف جيّدا ممّا أخاف. أخاف من ألاّ يكفوّا عن حبّي، ولا شيء آخر. بلى، ربّما من العناكب. أنا مُطمئنّة بشأن خوفي الأوّل. لا أدري لماذا لكنّي لستُ قلقة، مثلما هو حال أمّي: وفي غياب أيّ أحد، يظلّ التراب والهواء والماء والنّور موجودين دائما. لن أُهمَلَ أبدا. اقتربتُ من الفرقة الصّغيرة. عرفتُ لماذا اعتقدتُ أنّهم أطفال: لأنّهم دون عمر. أجسادُ كبار برؤوس أطفال. مُضحك هذا الخليط. كما لو أنّ الزّمن الذي يحفر اللّحم، ويجعل العيون تغور، نسيَهم. كما لو أنّ الزّمن قد مرّ من دونهم، فوقهم، متجاهلا إيّاهم. أخذتُ الأخير من يده، أمسك بها دون أن تلوح عليه علامات الذّهول، أضفتُ أغنيتي إلى أغنيتهم، وهكذا ابتعدنا عن المقطورة، سرعان ما أصبحنا خارج المدينة، دخلنا مُتنزّها، في عُمقه قصر. تفرّقت الصّفوف. كنتُ امرأة نحيفة برأس رضيع. تمشي رافعة ذراعها نحو السّماء، مثل دمية غاضبة. دخلتْ القصر، تجاوَزَت مطبخا حيثُ طُرحت الأغطية، اتّخذت سُلّما، دَخلتْ غرفة فيها سبعة أسرّة. استلقت على سرير

ورفعت ذراعها أسرع فأسرع. تسلّقتُ السّرير المُجاور وقمتُ بالحركات نفسها، لكن ليس بالذّراعين بل بالسّاقيْن. كانت تراقِبُني من حين إلى آخر، دون أن تتوقّف عن فوضاها. دام العرضُ طويلا، بدا أنّ المرأة لا تتعب، أنهكني الحوار الرّتيب، خرجتُ من الغرفة ونزلتُ السُلَّم. دقّ طفلٌ أحمَرُ الوجهِ جرسا، إنّها ساعة العشاء. ذهبتُ إلى عمق المُتنزّه، تمدّدتُ مُستندة إلى شجرة زيزفون، ورحتُ أراقب. ثمّة دائما ما يُمكن رؤيته، في كلّ مكان. ورقة تسقط، نملة تتسلّق، سحابة تتمزّق. نمتُ. عند استيقاظي كان القصرُ مطليّا بالأسود والسّماءُ بالأحمر. شعرتُ بالجوع. غامرتُ بالدّخول إلى المطبخ. لم أر في حياتي شيئا مماثلا: فسيحا، وضخما كمقطورَتَيْن. على حافّة حوض من الزّنك، وجدتُ علبة معجون كبيرة كدلو طّلاء. يستحيلُ فتحُه. صعدت على كرسيّ، وفتّشتُ في الخزانة التي تحيطُ بالقاعة على ارتفاع متوسّط. لا شيء. غمرني الحزن، إلى جانب الجوع، لم يأتِ من جهة البطن بل من جهة العيْنَيْن: كم هو حزين أن يكون هناك نقطة تختزل الكلّ. ما هو مُخصّص للجميع غير مُخصّص لشخص واحد. تابعتُ البحث. فتحتُ أحد أبواب الخزانة، سقطت أوانٍ على الأرضيّة، في محاولة منّي لمنعها من السّقوط، وقعتُ بدوري، جاء أناسٌ، كانوا خمسة حولي، بينهم من يُفتَرَضُ أنّه المدير: حين كان يتكلّم فإنّ الآخرين يسكتون. سألني من أين جئت. ابتسمتُ، أشرتُ بيدي: جوع، عطش. أخذني إلى مكتبه. اشتدّ بي الجوع، ضاعفتُ من حركاتي كي يفهمني. قال لي: سنقدّم لك شيئا تأكلينه، لا تخافي، لكن بما أنّكِ لا تتكلّمين، يمكنك كتابة اسمك

وعنوانك على الأقلّ.؟ مرّر لي ورقة، كتبتُ: روز لاميانت، 27 شارع لوكلارك، ليموج. لا أخشى شيئا من إعطاء هذا العنوان: لاحظتُ أنّ المدينة بأسرها هي شارع لوكلارك. لا أدري إن كنتُ أرغب في شارع باسمي. يجب أن يكون شارعا مفتوحا على الرّيف، الضّاحية بأكملها، حيثُ البيوت منفصلة الواحدة عن الأخرى ذائبة في الطّبيعة كالسكّر في الماء.

لا جنود هذه المرّة: رآني التّوأمان أذهب مع المجانين، كان وصفُهم كافيا. حضر والدايَ إلى القصر، بعد مرورهما بمُستشفَيَيْن نفسِيَّيْن في الجهة. نظر إليهما المُدير بعين سيّئة.

العودة في السيّارة الكادياك الورديّة ذات النّجوم المرسومة على الغطاء. صمتُ أبي. صمتٌ سرعان ما انقطع كشجرة. نزل السّخط على أمّي: ابنتك كذا، ابنتك كذا. حين يغضب أبي بسببي أصبح ابنة أمّي فقط. هي المسؤولة الوحيدة عنّي، وسبب كلّ المصائب في الأرض. أمام هذا الكمّ من اللّوم، لا تجد أمّي وسيلة للتّعبير سوى الضّحك عاليا. في تلك اللّحظة، كما هو الحالُ دائما، يتردّد أبي بين أمريْن: أن يقتل أمّي أو أن يُقبّلها. تردّد لا يدوم سوى لحظة. كان فرحُ أمّي معديا للغاية: فرقة سعيدة توشك على الوصول إلى المقطورة الآن. عاد الطّفلُ الضالّ من جديد.

يجري الحديثُ مُطوّلا مع الأطفال. يحدّثونهم ليلا ونهارا، عن حياتهم وعن موتهم. خصوصا عن موتهم. الطّفل هو الكائن الذي يتمّ تذكيرُه ليلَ نهارَ بالنهاية الوشيكة، المؤكّدة، المرغوبة: الكِبَر. أسرع بالكِبَر. مُت واتركنا بسلام. الطّفولة مثل قلب يُرعبُه الخفقان السّريع. كلُّ شيء مُصمّم كي يستسلم هذا القلب. المعجزة هي أن يعيش بالرّغم من كلّ شيء. المُعجزة هي أنّ أحدا لن يقدر أبدا على القول: حسنا، ها قد انتهى الأمر، في عمر مُعيّن، في وقت مُعيّن، لن يكون هناك أطفال، ما من موزارت، ما من رامبو – Rimbaud ، لا أحد سوى شخص كبير. كلّ الأطفال ليسوا موزارت، لكنّ موزارت هو كلّ الطفولة: سبيلا للرّقص على الماء، طريقة للنّوم في الهاوية. كلّ الأطفال ليسوا رامبو، لكنّ رامبو هو كلُّ الطّفولة: مذاقا بريئا للحيلة، نشوة التّرانيم والأحجار البرّاقة.

كان عمري عشر سنوات حين التقيتُ بموزارت ورامبو في قفص السُلّم، بـ «كريتايْ – Créteil موزارت اسمُهُ جوليان، عمره إحدى عشرة سنة، كان أسود مثل ذئبي، جاء أهلُه من المارتينيك، لم يكن لوالِدِه سوى ذراعٍ واحدة، ترك الأخرى في مصنع، داخل آلة،

كان يتقاضى راتب عاجز، كانوا سبعة يعيشون على كاهل ذراع مبتورة. كان لرامبو اثنتيْ عشرة سنة، اسمُه مومو، لا أبيض ولا أسود، ذهبيّا كالرّمل، كان والِدُه قبائليّا، وأمّه بروتونيّة، يديران بقالة في الحيّ، تقدّم أيضا خدمات إصلاح الأحذية ولوازم التجهيز الصحيّ والمخبزة وأشياء أخرى،كلّ هذا في حجرة بمساحة طابع بريدي.

لم أتحرّك بعد ليموج. الضّاحية صغيرة جدّا. ضايقتني قطط مخفر الشّرطة. انتظرت. أخذتُ استراحة. إنّها نهاية الفصل، أبدى الخريفُ ألوانَه، قريبا، سيدخل السّركُ في سباته، بقي القليلُ من حرارة الصّيف، القليل جدّا. وصلنا إلى ضاحية باريس، في كريتايْ. كان تأمّل البنايات المصفّفة كافيا: هذه الأماكن منذورة للزّوال. بل هي مُشيّدة لذلك فحسب. العديد من الوجوه والأشخاص للنّظر. العديد من الأطفال والأشخاص للتّرويض. إنّها أرض الهروب المثاليّة.

تجذب خيمة السّرك الحمراء كالدّم، الجموع التي تعيش في المباني. نحن هنا لثلاثة أيّام، عرضان. يأتي الأطفال ليشمّوا روائح الحيوانات، للمس ذهب الأزياء، تأمّل مزيج المجد والبؤس الذي يُسمّى السّرك. تجاسروا وطافوا بين المقطورات، دخلوا تلك التي كنّا نهملها مُقفلة بالمفتاح، احتشدوا للتفرّج علينا، أكلوا وغسلوا الأواني.

موزارت - جوليان، أعدتُه فورا. لم يكن يتكلّم تقريبا، كان

يُصفّر. سجعَ كالحمام، ثرثر وغنّى. في وسعه تقليد عشرات أصوات العصافير دون أن يكون قد رأى واحدا منها. شريط تسجيل؛ أناشيد طيور أوروبا، كان له الأثر الكبير على طفولته. أحد إخوته "عثر" عليه في سيّارة. كان والداهُ يُسمعانه إيّاه كي ينام. صار منذ ذلك الوقت ملك التقليد. لديه نطاقٌ كامل من المعاودة، من الغضب إلى شدو الغزل.

رامبو – مومو، يتكلّم. بل إنّه يتكلّم كثيرا وبفصاحة. يستمدّ كلماته من الصّحُف والكتب القديمة المُهملة في حاويات القمامة. إنّه بصدد قراءة مُذكّرات ماريلين مونرو، شقراء قتلت نفسها لأنّهم لا يُحبّونها -أو الذين يحبّونها ليسوا كثرا بالقدر الكافي- فسّر، فخورا، متقمّصا شخصيّة صحفيّ، دون شك. انبهر حين قلتُ له إنّ اسمي ماريلين.

لا يفترق الولدان أبدا. حين أرى أحدهما أسمعُ الآخر. هذا طبيعي، فرامبو، وموزارت، من العائلة نفسها، فصيلة الدّم ذاتها، تطابق في عبقريّة الحياة التي تمضي دون هدف، توحّد في الغبطة التي لا تنتهي أبدا.

رويتُ مُحاولات هربي لجوليان. كانت تهمّه بدرجة أقلّ من حياة السِّرك التي كنتُ أعتبرها عاديّة: الأسود وتوهّج الأضواء السّاطعة وبوق المُهرّج ورائحة الرّوث، كانت جميعُها مألوفة لدَيَّ، كما هي القطط ونور التلفزيون الباهر ورائحة الكرنب الكريهة على عتبات الباب، مألوفة بالنّسبة إليه. مومو يُصغي إليَّ بشكل أفضل. نحنُ نُصغي حين نُحبّ. أودَعتْ قصصُ هروبي واسمُ عائلتي على وجه الخصوص، السّحرَ الذي في اسمي الأوّل، حبّي في قلب مومو. طلبتُ منهما مُساعدتي في اللّيلة التي سبقت رحيل السِّرك. الأمر بسيط: كان في «كريتاي- Créteil» منازل للذين لا مأوى لهم. كان هناك مآوي سيّارات سُفليّة لكنّها كانت خطرة ومُظلمة. الأقبية أفضل، سنشغل واحدة، سنذهب إليها بعد المدرسة وخلال الصّيف، وسط جوّ منعش، لا أحد سيعرف مالكها الحقيقي، إذًا فهي لنا، إنّها عربتُنا منذ سنة، كُرسِيّان، طاولة، راديو، مخدع، شموع، كلُّ وسائل الرفاهية، إنّها لك لو أردتَ.

في اليوم الموالي، غادرتُ مع السِّرك، بعد التأكّد من أنّي أنام في عمق السّرير، داخل المقطورة. أمّي في قمرة قيادة الشّاحنة، بجانب

أبي. أويتُ إلى السّرير في كامل ملابسي، جهّزتُ كيسا، خرجتُ عند أوّل إشارة حمراء، ركضتُ نحو المباني، شدو الطّيور يُرحّب بي بحرارة، بعد خمسِ دقائق، وجدتُ نفسي في بيتي تحت أطنان من الإسمنت .

لم أكن آوي إلى القبو إلاّ للنّوم. يُرافقني جوليان ومومو مع حواليَْ العاشرة مساءً، يحمل كلّ منهما مصباحا في يده، لأنّ الأضواء في العمارة خبيثة، ومُخادعة. هذا ما أعتقده على الأقلّ. أغلب سُكّانُ المبنى كانوا يعيشون البطالة ولم أكن قد عرفتُ بعدُ أنّ كلَّ شيء يُمثّل وسيلة ترفيه لدى الفقراء، حتّى الضّروريّات نفسُها: الخبز، الماء والنّور أيضا. لو أرادوا لطلبوا منهم دفع ثمن الهواء الذي يستنشقونه. حاليّا، أنا ملكة، يخدمها فارسان. سرقوا من أجلي الأغطية واللّحاف ورفوفا من عائلاتهم. جهّزوا لي بيتا كما في الأحلام. حينَ يُحبُّك الناس فإنّهم يمنحونك منزلا على الأرض. البيوت ليست مسألة حجارة إنّها مسألة حبّ. يمكن لقبو أن يتحوّل إلى مكان مُدهش. في بيتي هذا، يُمكنني الإحساس بعذوبة نوم كالماء أو كالنّباتات المُتسلّقة، كالنّعاس الذي يمنحني إيّاه ذئبي، حينَ كنّا نتبادلُ الأحاديث. بالنّسبة إلى الأطعمة فقد كان مومو يسطو على محلِّ والِدَيْه وكان جوليان يدعوني أحيانا إلى بيته، حيثُ لا أحد يسألني من أين جئت أو أين أقطن: ما دام هناك طعام يكفي لسبعة فهو يكفي ثمانية.

النّهار هو جزء من المساء، أنا في الخارج، ككلِّ الذين يعيشون

هنا. أدحرج الكرة وأركض في السّاحات الشاسعة، أنا لا مرئيّة، أعرف أنّي لا مرئيّة: يستحيل تمييز طفل بين عشرات الأطفال الآخرين، إلاّ إذا أمكن تمييز موجة من بين كلّ الأمواج الأخرى. إنّ الطفولة تطغى على جميع الفروقات بموجة واحدة من الصّخب المُبحِرَة والمُنتَشِرة في الأرجاء.

كنتُ أسعد من أن أحصي عدد الأيّام، إلى غاية وقوع الكارثة. تحمل الكارثة ثلاثة أسماء: مطر، مدرسة، حبّ. يطرُد المطر الأطفال من الحدائق العامّة. كانوا يستضيفونني هنا أو هناك فترةَ بعد الظّهيرة، لكن عليَّ قضاء الإقامة المُطوّلة في القبو. أقرأ المجلّات التي يحملها مومو. قصص ملكات وأبطال رياضة. تُحدِثُ المدرسة ما يحدثه المطر من دمار: إنّها تُفرّق الطّيور التي في سنّي، وتُفرغ الأرض في ساعة مُحدّدة. الحبّ أخيرا: يرغب مومو في الزّواج بي. قدّم لي عرضَه في ليلة عاصفة. كانت السّاعة الثانية صباحا، عندما امتدّت يده لتُداعب صِدغِيَ الأيسر برقّة، أيقظني ذلك. كان جوليان خلفَه. كانا يرتديان ملابس يوم الأحد. لديَّ ما أخبرك به ماريلين، جوليان من سيقول لك ذلك نيابة عنّي. وانطلق جوليان يتلو عليَّ محفوظة دامت نصف ساعة، تعرّفتُ من خلالها على شدو عصفور أبي الحنّ، إيقاع أغنيّة القبّرة المشهورة، ممتزجا بشدو طيور أخرى لم أنصت إليها من قبل أبدا. كلُّ عصافير أوروبا خطبت في حضرتي. غادر جوليان الآن، جلس مومو على كرسيّ، بقيتُ مُستلقية في عُشّي وراح مومو يتصرّف كالشّخصيّات في الروايات المُصَوَّرة: يتحدّث. يتحدّث عن المُستقبل الذي ينتظرنا، عن أسماء أبنائنا وعن تنانين

سنُرهقُهم سويّا، تنانين العادة والمال. كان يقطع حديثَه من حين إلى آخر كي يميل عليَّ ويُقبّلني على رقبتي، في المكان المُنعِش. لا أقول شيئا. لا أتحرّك. أحسستُ بالدّفء كما لو كنتُ في حلم. ابتسمتُ قليلا، قليلا فقط حتّى لا أستيقظ. انبعث فجأة تنّين من الباب: أمّ مومو في ثوب النّوم، يتبعُها حارسُ العمارة وشُرطي. كان لقائي الأوّل بحماتي باردا.

جرى البحثُ عن والِدَيْ ماريلين. وجدونا عندما وصلوا إلى المخفر، أنا ومومو، غافِيَيْن على كرسيّيْنا، رأسي مُسندٌ إلى كتف مومو الأيمن. لم يجرحني سُعارُ أبي -كان مُتوقّعا وواحدة من بين العواقب- ولا احمرارُ عَيْنَيْ أمّي. بل سحنة مومو عندما علِمَ أنّ ماريلين لا تُسمّى ماريلين. قرأتُ ذلك في عيْنَيْه: تحوّلتُ من ملكة إلى خرقَة.

ثمّة مكتبة وسط المدينة، على مسافة خمس مائة متر من النّزل. كانت صغيرة. أربعة أقلام، صورتان ورِعتان وثلاثة كُتُبٍ مُغبَرَّة في الواجهة. يمكنني الدّخول إلى المكتبة الكبيرة المقابلة، لكن لا، أفضّل هذه: أجد الأكثر حيثُ يكون هناك الأقلّ. اقتنيْتُ علبة أوراق بيضاء ولوحة مستنسخة لـ «تورنر –Turner » دون شكّ، لم أكن لأنتبه لها في المكتبة الكبيرة. منظر على ضفاف البحر. مزيجٌ من الضّوء أحدها طينيّ والآخر هوائيّ. صورة مثاليّة. وضعتها على الطّاولة مُسنَدة إلى الجدار. ستصلح لي كمرآة.

عندما كان النّور، الحقيقي، ذاك الذي يئس الرسّامون من الإمساك به، يزحفُ كلَّ صباح من بين شقوق النّافذة، فإنّه يخطّط الحائط فوق رأسي وأنا في السّرير. افتحي، قالت لي، افتَحي بسُرعة، هناك مفاجأة لكِ. المفاجأة هي يوم إضافيٌّ في حياتي، مُختلفٌ عن البقيّة. لدَيَّ عينٌ فاحصة للتّفاصيل، لديَّ القدرة على تمييز الاختلاف، بل لا أستطيعُ سوى رؤية الاستثنائي. تلك الزّهور مثلا: لم أكتب اليوم، خرجتُ للتنزّه في الغابة حيثُ وجدتُ هذه الزّهور الحمراء. قطفتُها لأنّ لونها يُشبه ذاك الذي اصطبغ به

الشريط الذي تحملُه البهلوانيّة في شعرها. لا أتحمّل غرفة لا يوجد فيها زهور حديثة. النّباتات أمر آخر تماما. تبعثُ النّبة في الغرفة حضورا حميميّا مُطمئنا، أثقل من أن يتحمّله ذوقي.

أحاديث الزّهور تكفيني يوما كاملا. ربّما وجدتُم جملة كهذه حزينة، سأعاتبكم في هذه الحالة. لأنّ الزهور تتكلّم وتُغنّي. إنّها تملأ غرفتي مرحا مثل باخ. ثمّ إنّها لا تُؤذي أحدا: يتنفّس الضّخم بصعوبة في هذا الوقت. يجدر بي أن أغيّر بطّاريات آلة التسجيل. لا شيء يضغطني. كنتُ دائما معادية لكلّ ما يُخرّب. يمكنني أن أمضي أسابيع كي أركّز رفّا واحدا، أغيّر مصباحا أو أكتب رسالة قطيعة. سينتظرني الضّخم. لا أفتقد حواراته كثيرا، لأنّ الزّهور تُعوّضها جيّدا: شبّانٌ مُخضرمون في زيّ أحمر، يثرثرون جاعلين سيقانهم في الماء .

لا أكتب بالحبر. أكتب بخفّتي. لا أدري إن كنتُ أُسمِعُ أم لا: الحبر، أشتريه. لكنّ الخفّة، ما من محلّ يبيعها. إمّا أن تأتي أو ألاّ تأتي، حسب المزاج. عندما لا تأتي، فهي موجودة مع ذلك. تفهمون؟ الخفّة في كلّ مكان، في انتعاشة المطر وجسارته، على أجنحة كتاب مُهمل تحت السّرير، في صلصلة جرس كنيسة في ديرٍ ساعة الصّلاة، صلصلة طفوليّة وراجّة، في اسم همست به الأفواه آلاف وآلاف المرّات كما يُمضَغُ العُشبُ الغضّ، في نور يتلوّى عند مُنعَطفات «جورا»، في الفقر الأعمى الذي في سوناتات شوبير، في احتفاليّات غلق النّوافذ مساءً، في اللّمسة الرّقيقة الزّرقاء، زرقاء شاحبة، زرقاء

بنفسجيّة، على جفون مولود جديد، في عذوبة فتح رسالة غير منتظرة، غير مبالين، ولو للحظة، بقراءتها، في ضجّة الكستناء المتساقطة على الأرض وفي صفاقة كلب يسير فوق بحيرة متجمّدة، أتوقّف هنا، الخفّة، أنتم ترونَ، إنّها تُمنَحُ في كلِّ مكان. وإن كانت رغم ذلك نادرة، ندرة لا تُصدَّق، فذلك لأنّ فنّ التقاطها يعوزنا، علينا فقط، تلقّي ما هو مُهدى إلينا في كلّ مكان .

أراه من بعيد في بداية عمله، أركُض نحوَه مُلوّحة بالدّفتر الذي سُجّلت فيه علاماتي مع ملاحظات كلّ أستاذ. أرقام وكلمات تحدّثه عن ابنته مثل نجمة موعودة بأجمل الغايات، مجرّة في سماء المعرفة الرّماديّة. أحيانا لم أكن أجده. أعود إلى البيت وأسأل أمّي إن كان هنا وأمام ردّها الإيجابي، أستدير وأبحث عنه حتّى أجده مُستغرقا في حفر قبر يديه القويّتَيْن، مُلقيا بكومة تراب نحو السّماء كلَّ عشرة ثوان. يتوقّف عندما يراني، يغرز مجرفته في عمق الأرض اللاّمعة، يُشعل سيجارة ويقول لي: أسمعك صغيرتي، فأسرد عليه أعدادي التي جنيْتُها طيلة الثلاثي، في اللاّتينيّة، الإنجليزيّة والفرنسيّة. أعدادا باهرة فحسب، متألّقة كالأحجار الكريمة، خمسة عشر، ستّة عشر وسبعة عشر على عشرين. ملاحظات الأساتذة متحمّسة. نقطتا ضعف، ظلّان رقيقان: في الرّياضيّات والعلوم الطبيعيّة. وهما العددان الوحيدان اللّذان يشير إليهما، الوحيدان اللّذان يخرجان منه ملاحظة ما. ثمّ ومن دون ابتسامة يسحب مجرفته من الأرض ويغرزها مستأنفًا الحفر، يحفر ويرمي، يرمي ويحفر. إنّها نتيجة كلماته دون رحمة: تحفر في نفسي وتستخرج كلّ مرّة، كلَّ نهاية ثلاثيّ،

القليل من التّراب الخصب، القليل من السّرور. تبدو تلك الحفرة دون قاع.

لا يرى الدّموع التي تنزل من عينَيَّ، لا أمنحُه ذلك الشّرف، أبتلعها وأُخلي سبيلها في المطبخ حيثُ أمّي في انتظاري. تُحيطُني بذراعَيْها، تسحبني إلى نَهدَيْها كفتاة صغيرة لم أعد أشبهها. أفضّل مواساة الأيّام الماضية، عندما كان شعرُها طويلا: حين كانت تضمّني إليها كان شعرها ينسدل على وجهي كماء عذب.

لاحقا سأعلم - لكنّي أعلم سلفا-: أبي مُصابٌ بمرض خطِر. ثمّة أمراضٌ عديدة في الحياة. أمّي، مثلا، هي مرضُ الهزْل. إنّه مرض حميد، لا يُصيب الأعضاء الحيويّة. أمّا أبي فداءٌ لا شفاء منه، يتمثّل في الإتقان. على كلّ شيء أن يجري على أحسن وجه، وهذا الأحسن لا يكون هكذا أبدا، أبدا. إنّها مُعضلة تُرهق مُحيطه. أدركتُ خلال سنة أنّه ليس عليَّ الإسراع إليه، يجب أن أترك الدّفتر مُهمَلا في الخزانة ولن أسمع تعليقاته أبدا، من المُستحيل سماع ما نعرفه سلفا. انحزتُ إلى مُعسكر أمّي: أنفجر ضاحكة أمام هذا الكمّ الهائل من عدم النّظر .

تغيّرات عديدة خلال فترة وجيزة: شعر أمّي الذي انزلق تحت مقصّ الحلاّق، صاعقة المبيت التي سقطت عليَّ والسّرك الذي ابتعد، كلّ هذا في ظرف يومَيْن.

والداي واقفان في مقطورة المالك. أنا خلفهم، جالسة على كنبة من سعَفِ الخوص. لأوّل مرّة يبدو والداي مذنبين: لكن خلف

الظّهر، القدمان ترقصان بخفّة، والصّوتُ مُرتبك. كان المالك من أصول بولونيّة. لم يكن يتكلّم الفرنسيّة، إنّه يبتلعها. من الصّعب التحكّم في الأزمنة وتصريف الأفعال: ارتأى ألاّ يستخرج من هذه اللّغة المُستحيلة سوى مصادر الأفعال. أخرج أربعة كؤوس من بارِهِ. عصير برتقال لي، لهم الفودكا بالأعشاب. إرادة الثّلج؟ لا، لا أحد يريد "إرادة" الثّلج. عندها مضى مباشرة صلب الأحداث كوحش غاشم: أوّلا الخريف، الشّتاء بسرعة، يعني أقلّ حاجة إلى عُمّال. ثانيا الفتاة، الهروب الدائم، الشرطة دائما، المواصلة مستحيلة، صورة السّرك غير جميلة. ثالثا المال، أقلّ أموال في الصّندوق، الحاجة إلى مروّض أسود، بهلوانيّة، مُهرّج، لا حاجة إليكما أنتما، يعني الفصل، دون مؤاخذة.

لكن لا، لا نؤاخذك: بعد المحادثة بساعتَيْن، كان أبي يقرأ إعلانا في جريدة. تحتاجُ المدينة التي يتّجه نحوها السّركُ إلى مُكلّف بالحفر. راتب جيّد، مسكن وظيفي متاخم للمقبرة. في اليوم الموالي غادر والداي تجارة الحفلات نحو تجارة الجنازات. ساعدنا أهل السّرك على نقل أمتعتنا إلى المنزل المُغطّى بالكروم العذراء. حديقة كبيرة، سُلّم حلزوني للانتقال من الصّالون إلى ببقيّة الغرف، منظر مُطلّ على الغابة خلف القبور، باختصار، إنّها السّعادة، رغم غموض مصيري: يُفتَرَضُ أن يُقلّص المبيت من هروبي المحموم، لكن منذ فترة، ليس هناك غير راتب أبي، وتكاليف المبيت باهظة. استعلم والدايَ، ستمنحهما البلديّة مساعدة، سأركب، في بداية أكتوبر، باصا للذّهاب إلى معهد «سانت-آنياس»، على بعد ثلاثين كيلومترا

من هنا. فسّر أبي: سيختبروننني سنة كاملة. لن أعود إلى البيت سوى في نهاية كلّ ثلاثيّ. سأكون يوم السّبت والأحد في ضيافة امرأة، يُسمّيها المبيتُ: عرّابة. ستتقاضى بعض الدّراهم لقبولها إيواء مُقيمة بعيدة جدّا عن عائلتها خلال عُطَل نهايات الأسبوع. لم أكن أعرف أنّ ثلاثين كيلومترا مسافة بعيدة جدّا. تفحّصني والدايَ. انتظرا التمرّد، المطالب، أو على الأقلّ، الذّهول. لم يحظيَا سوى بابتسامة .

فهمتُ شيئا، أمرا في غاية الأهمّية، اعترافا لو شئنا. فهمتُ أنْ لا أحد سيُرغمني على شيء أبدا. لا أحد. أبدا. المبيت، سنرى ما بشأنه. وجدتُ طريقتي. إنّها بسيطة. ما يتعلّق بالمبيت يعادل ما يتعلّق بالزّواج، أو بالوظيفةِ، وبكلِّ شيء. طريقتي هي: سنرى.

وصلتُ إلى المعهد تحت مطر غزير. أشار لي سائق الباص إلى الاتّجاه: إنّه على بعد ثلاث مائة متر من هنا، لديك فرصة كي لا تتبلّلي لو ركضتِ بسرعة. لم أركض. مشيتُ بتُؤدة، نظرتُ إلى البوّابة، المدخل، الأشجار الباسقة، مِلتُ ناحية بِرَك الماء، ترنّمتُ بأغنية. يغمرني ماء السّماء بالبهجة، من حيثُ أتى، فأستوعبه كلَّه. شَعر وملابس وأفكار، لا شيء منّي يظلّ جافّا. كان المعهد بناية في ضيعة قديمة، تعود إلى القرن الثّامن عشر. أحجارٌ سمراء محفوفة بأعشاب خضراء. المبيتُ في الجناح الأيسر. في الجناح الأيمن، مسكنُ الأخوات الطيّبات. في المركز قاعات الدّرس، ووسط السّاحة كانت هناك كنيسة صغيرة، كأنّها حجرة حراسة. تقطن سيّدة المنزل تحت جرس زجاجي. عمرها مائة وسنتان. ماتت سانت-آنياس، الأخت «بول- Bulle» كما يدعينها الأخوات في الغابون منذ سبعين عاما. كان عُمرها آنذاك اثنيْن وثلاثين سنة. ما الذي يدفع مُتديّنة للذّهاب إلى الغابون، إنّه لغز. تقول الرّواية الرسميّة، إنّه: الخير. لا تزيد هذه الرّواية سوى من تعميق اللّغز. أجهل ما معنى القيام بالخير. «حدّثوني، أحيانا، قائلين: «هذا خيرٌ

لك» ويجعلني ذلك كالصمّاء، لكن لا أظنّ أنّ المسائل متشابهة. إلاّ إذا كان المعنى هو ألاّ تفعل الشرّ ، وهذا كثير في حدّ ذاته. كان للأخت الرّئيسة التي استقبلتني، وجهٌ طفوليٌّ. دعتني لتحيّة القدّيسة الصّغيرة. كانت تحدّثني كما لو أنّها تُقدّم لي مريضا كبيرا، بصوت خافت، بحيطة في انتقاء المُفردات، إلاّ إذا تعلّق الأمر بقول التّفاصيل، هنا، يُصبح صوتها أعلى، ومُفعما بالاعتزاز: سيُصبح غياب التفسّخ، علامة أكيدة من علامات الطّهارة المُقدّسة. اتّضح عندما تمّ نبش قبر القدّيسة لاحقا، بعد ثمانية سنوات، أنّ قسماتها لبثت سليمة، من كلّ تحلّل، ناعمة، بل إنّ ابتسامة كانت تعلو مُحيّاها، ابتسامة لم تكن موجودة من قبل، كسحنة قبل الشّروع في البيرة. أحببتُ هذا. لا أملك شيئا أقوله أمام إعجاب كهذا، وهيئتي المأساويّة. كنتُ مخطئة من رأسي إلى أخمص أصابعي، كان شعري مُسدلا من جمجمتي كخيوط ورائحة كلب مُبلّل تنبعث منّي -لا يُسمَحُ لي بأن أشكّ في قداسة أيّ كان. لكنّي أفكّر في أبي وما علّمني إيّاه في عملِه. لاحت قبّرة صحبة أحد الزّوار. اقتربتُ: كان الزّائرُ شابّا من السّنوات الثّلاثين، خرج من تابوته كي يلتحق بمقبرة جماعيّة، لأنّ العائلة لم تُجدّد عقد الامتياز. كان وسيما، مُلتحيا، ويحمل نظّارتَيْن، سليما، جافّا مثل قطعة خشب. جعله أبي يقف ما يكفي لتدخين سيجارة، مُسنَدًا جيّدا إلى صليب. قال لي إنّه يعثر على أجساد سليمة باستمرار، وأنّ الأمر متوقّف على طبيعة الأرض. أحيانا، كانت ضربات المجرفة تجعلهم يتبدّدون غبارا. ربّما لأجل ذلك وُضعت الأخت «بول» تحت الزّجاج. القداسة هشّة.

تُرسِلُ العائلات الغاضبة البناتِ إلى هذا المعهد. وتُعَيَّن الأخوات التائبات أيضا هنا: الأديِرة التي يعدن إليها بالنّظر اختارت إبعادهنّ عن الكآبة، بتعيينهم في وظائف التّأطير. بالتالي فإنّ هذا العالم الصّغير مُنسجم للغاية: الاتّفاق تامّ بين اليتامى.

خمسة عشر فتاة في غرفة واحدة، أربعة عشر مُجتمعات حول سريري حتّى السّاعة الثانية صباحا ليسمعوا حكاياتي عن الجثث، التي كان أغلبها من ابتكاري. تتعبنا قصص الهروب والبعث، ومن الثامنة حتّى العاشرة صباحا، يكون أمام كلّ أستاذ من أساتذتنا مجموعة من العقلاء. بعد العاشرة، يوقظنا صوتٌ أستاذ الفرنسيّة المُضيء. يخرج راسين، لافونتين، باسكال، مونتينْيْ والآخرون من كهوف الأدب العظيم كي يدخلوا قلوبنا المراهقة.

مرّت الأسابيع والأشهر والسّنوات. أنا تلميذة مثاليّة، ما عدا في مادَّتَيْ الرياضيّات والعلوم. لا أحبّ كثيرا لغة العلماء وخُبراء المُحاسبة. أفضّل كلام الملائكة الرّقيق، حفيف الإسكندريّين، واللاّتينيّة الصّخريّة. لم أهرب مُجدّدا، فتحتُ الكتب. لم أخترع أسماء ولم أكذب سوى حول نقطة واحدة: ادّعيتُ أنّي يهوديّة كي أفلت من دروس الدّين. لم يكن ذلك كذبا بمعنى الكلمة. يهودي، هو اسم ذئب.

ابتكر التّوأمان نوعا آخر من الكوارث أثناء غيابي: تبادلا ملابسهما وأسماءهما وقاموا بمقالب راح التّجار ضحيّتها. تدخل أمّي إلى المحلاّت كما كانت تدخل أيّ مكان، يسبقها ضحكها.

راحت تُفسّر: لديَّ ثلاثة أطفال، لم يفلحوا أبدا في المكوث في مكان واحد. الكبيرة كانت ترحل إلى أقصى الأرض، التوأمان يخلطان اسميْهما، ماذا تقولون، إنّه قدري، لقد أنجبتُ أرواحا مهاجرة. ثمّ تضحك على طريقتها، دون أن تنتبه إلى أنّها الوحيدة التي تجد كلامها ظريفا. أمّا أبي فيتجهّم. أراه جيّدا. أعرف أنّه لا دخل للموتى في ذلك. إنّه يتعامل معهم كما كان يُعالج الصّناديق والحبال والخيمة في السّرك. ما يُزعجه هم الأحياء، خصوصا أحدهم من بين الذين صاروا يتردّدون باستمرار على البيت. الوضع بسيط: وجدت أمّي عملا لدى بائع ورود. ووجد بائع الورود أمّي. كانوا في السّرك قرابة اثنَيْ عشر شخصا يحومون حول أمّي. اليوم واحد فقط. أرى من بعيد. من ثلاثيّ إلى ثلاثيّ. ثمّة العديد من القصص المُشابهة في الكتب التي أقرؤها. صادفتُ أمّي في قصيدة لـ «پول إيلوار»، في أثرها على الأقلّ. كانت قصيدة رائعة. كان عمري سبعة عشر سنة وأحبّ أن يكتب عنّي رجل شعرا من هذا النّوع:

الحقيقة هي أنّي أحببت

والحقيقة هي أنّي أحبّ

يجعلني الحبّ أولى من يوم إلى آخر

أجهل كلّ شيء عن الأمس

فلا أندم

و لا أتحسّن

بين العاشرة والسابعة عشرة؛ قلبي تيّار هوائي حقيقي: دخول وخروج. أسجّل في دفتر قائمة العابرين.

إليزابيت غرانڤيل، واحدة من البنات اللاّتي لا ينبغي دخول بيتها آخر الأسبوع. كان لدينا العرّابة نفسها. إليزابيت غرانڤيل معجزة صغيرة: كلّما تحصّلت على أعداد سيّئة، كلّما ابتسم لها الأساتذة. إنّها من نوع الفتيات اللاّتي نحبّ فيهنّ الصحّة، خطافٌ ضلَّ طريقه إلى قاعة في مدرسة: مُستقرّة على كرسيّ، الجناحان مطويّان في انتظار الرّبيع، حيثُ تُفتَحُ النّوافذ على مصراعَيْها. كنتُ أحرّر لها النّصوص، محاولة مساعدتها في الامتحان. وكانت في المقابل تظلّ بجانبي في المبيت والمطعم والفصل وفي كلّ مكان. يكفي أن تكون بجانبي تلك البنت حتّى أشعر بأنّي ثملة قليلا. أحبّ بشرتها البيضاء، عينيها الخضراوَيْن، شعرها الأسود الطّويل، طريقتها في قول الحقيقة كاملة، حتّى تلك التي لا تخدم مصلحتها.

تعصف شائعات الحبّ بعقولنا نحن المراهقات، المنعزلات كما هو شأن القدّيسة سانت آنياس في قوقعتها. كنّا نتحدّث عن الأولاد

كثيرا. إليزابيت غرانڤـيل هي الوحيدة التي أتيح لها رؤيتهم من قريب، من قريب جدّا، قالت، «كان في مقدوري أن أكون أمّا». أذهلنا ذلك الاعتراف: لدينا، إذًا، ساحرة في المعهد بالإضافة إلى القدّيسة.

الأخت أدريان. كانوا يتهامسون في شأنها بقصّة ورديّة وسوداء كالحياة. أحيانا يُكتَبُ منها القليل. عاشق طال انتظاره، طال رجاؤه، تصدمه سيّارة في اليوم الذي استعدّ فيه ليعترف لها بحبّه.

على امتداد أسبوع، عند الفجر، كانت الأخت أدريان تتحوّل إلى مكان الكارثة لتتأمّل طويلا تفاصيل المنظر. نهاية الأسبوع، اكتشفت خاتم الخطوبة في خندق – ذهب أبيض في علبة مُجوهرات من الصّدف الأخضر–. مثل ماءٍ، دخلت إلى كنيسة في قرية، وألبست الخاتم إصبعَ عذراء من الجصّ. بعد شهر طرقت باب دير. أحبّ هذه الحكاية. إنّها تشبه تلك التي كنتُ أجدها في عَيْنَيْ ذئبي. الأخت أدريان هي الشّخص الأرقّ في الوجود: لا كلمة أعلى من الأخرى. عندما كانت تباغتنا نثرثر ليلا، لم تكن تعاتبنا، بل فقط، كانت تكتفي بالنّظر والابتسام، تقبل منّا قطعة حلوى، أو كعك، كأس عصير التفّاح –نحنُ ننظّم نزهة في الطّبيعة أحيانا، حاملين معنا المؤن التي يجلبنها البنات معهنّ من بيوتهنّ يوم الاثنَيْن– ثمّ تخرج، مُتسلّلة في ذهابها كما في قدومها: لم نكن نسمَعُ وقع خطواتها وهي قادمة نحونا أبدا، كانت بدل المشي تنزل كسمكة في الماء، على بعد سنتيمترات فوق الأرض، مُستخدمة أجنحتها الصّغيرة الخفّاقة

المتوارية خلف ثوبها القُطني الرّمادي.

عرّابتنا هي ماريس نونشالان. تؤويني أنا وإليزابيت من الجمعة حتّى الإثنيْن صباحا. لا تزالُ شابّة -أو على الأقلّ في نظرنا- لم تكن تكبرنا سوى بأربعين سنة. كانت من بين المُقيمات الأوائل في سانت-آنياس، ثمّ تزوّجت وطلّقت، وهي تكسب عيشها من تقديم دروس في الإنشاد. تركت لنا حرّية مُطلقة، كانت فقط مُتطلّبة فيما يتعلّق بمواعيد الوجبات والضّرورة القصوى التي كانت توليها لغسل اليديْن قبل دخول البيت. هي نفسُها كانت تأخذ أكثر من حمّام في اليوم، ما يجعلنا نضحك: سيّدة نونشالان، سينتهي بك الأمر للذّوبان كصابونة من كثرة الاغتسال. كانت تضحك. قليلون هم من يستطيعون الضّحك منقادين إلى جنونهم الخاص. عدا هوسها بالنّظافة، فإنّ ماريس نونشالان امرأة غيرُ متوقَّعة. روت لنا أنّ طلاقها جرى بوتيرة واحدة: دام زواجي ثلاث سنوات، إلى غاية ظهور نوتات ناشزة في صوت زوجي. لم يكن كذبا بمعنى الكلمة. بل أكثر فظاعة: مناطق باردة انسحبت على طريقة كلامه معي. تقرّر كلُّ شيء من العدم، تضايقَ لأنّي أستغرق وقتا طويلا في ارتداء ملابسي قبل الخروج إلى العشاء صحبة الأصدقاء. سُرعان ما عرفتُ أنّ الأمر محسوم. قلتُ في نفسي إنّ الحياة أقصر من أن أقضّيها مع مغنٍّ رديء ليس لديّ الكثير لأعاتبه عليه ما عدا ذلك الصّوت الذي غادرته رقّته، والذي لم يبقَ منه سوى ألفة غامضة. كان تفصيلا في الأصل، لكنّ الحبّ يكمن في التّفاصيل، لا في شيء آخر. أنتما صغيرتان آنستاي، وظريفتان. ستخرجان قريبا من غابة

الدّراسة وستدخلان فسحة الحياة. سترقصان هناك وستبكيان. ستضيعان وستكسبان كلَّ شيء، أحيانا في اللّحظة نفسها. يمكن أن يعطي المرء كلَّ شيء في هذه الحياة، العطاء هو أرقّ نوع من أنواع الخسارة، خسارة كلَّ شيء ما عدا أمر واحد. ما أقوله لكما الآن أخذته عن جدّتي، ساعات قبل موتها، امرأة من الرّيف، الشّيوعيّة الوحيدة في القرية، سقط الرّمادُ على رأسها مدى حياتها، ابن معاق، آخر مات في مُعسكر الاعتقال، أمراض، بؤس كالمطر، يوما ما، وكان عمري ثلاثة عشر سنة، سألتها: ميمي، ما هو أهمّ شيء في الحياة؟ لم أنسَ الإجابة: أمر واحد مُهم، صغيرتي، الفرح، لا تسمحي لأحد بأن ينتزعه منك. قالت: فرح. اعتقدتُ أنّ المُتديّنات يقلن: سعادة. لكنّ جدّتي لم تكن تخالط هؤلاء النّاس. منذ ذلك الحين وأنا أعيش على كلماتها. في العمق، لم يعرف زوجي سبب انفصالنا الحقيقي. في حين أنّ الأمر كان بسيطا. عندما تزوّجت، كان الفرح في قلبي. وإن كنتُ قد طلّقت، فلأنّ تهديدا لاح لي بأنّ الفرح سيهجرني.

باستيان أورمان. ابن عمّ إليزابيت. من أجلها نظّمنا حفلات في عمق اللّيل. إنّه من بين الأوقات النّادرة التي كانت تأكل فيه شيئا. كانت باستيان مُصابة بفقدان الشهيّة، كانت تتغذّى على خبز الملائكة: لا شيء، الفراغ. أهلُها مُزارعون. في بيتها، أفراد العائلة لا يتكلّمون، يأكلون فحسب. ما لا يقولونه، يزدردونه. تُمضي أمّها ساعات في المطبخ تُقطّع الدّجاج، وتنتزع من الأرانب العظام، تُحضّر مرقا بالخمر، تطبخُ كعك الكرّاث وحلويات الأرز. دُعيتُ

إلى بيتها وخرجتُ مريضة. لم تُعوّدني أمّي على ولائم كهذه، قتالات بدل الوجبات: ثلاث ساعات على الطّاولة، وأمّ باستيان، مثاليّة في دور المُجرم، متحفّزة للخدمة على نحو لا يُحتَمَل، مسيئة بدافع الطيبة: كلي، كلي، إذًا، في سنّك يكون المرء جائعا على الدّوام، خذي المزيد.

إنّها الأسماء الأربعة الأولى في قائمتي. ثمّة آخرون. لا أحد معروف من عائلتي. لأنّي أرحل عنها باستمرار، أنا بصدد التعرّف على معنى العائلة: ينبع هذا من العين والماء القذر. لا يسع الطّفل سوى الرّحيل بعد قضاء بعض الوقت: يصبحُ إسماعُ صوته أمرا مُستحيلا، لأنّهم يعرفونه أكثر من اللاّزم ولأنّهم لا يعرفونه أبدا. ماذا يعرف والداي عن قلبي ذي السّبعة عشر عاما؟ لا شيء تقريبا. ينبغي أن أحدّثهم عن الوجوه الآتية من الخارج والتي تضيء دربي كعائلة. مُستحيل طبعا.

ضغط عليَّ أبي كي أختار مهنة. أجابته أمّي بأنّي أملك كلَّ الوقت وراح بائع الورد الذي أصبح حاضرا في كلّ وجبة، مثل عضو مزروع أو تطعيم ثبتَ، يؤيّد أمّي .

لم أكن أصغي إليهم، كنتُ أنظر. أبي، أمّي، بائع الورود. مُثير الغضب، الرّاقصة والمُفعَمُ بالأمل. لم أكن قادرة على النّظر والاستماع في آن واحد. الكلمات تقول أشياء، ويقول المُثُولُ أشياء أخرى مغايرة تماما. نعم، حقّا، لقد حان وقت الرّحيل، الذّهاب إلى العالم الشّاسع الذي يُحرق ويُزهِر.

نسيتُ «رومان» من القائمة. رومان كيرڤـوك. لم يكن نسيانا فعليّا. إنّه اسمُ الولد الذي ضاجعته للمرّة الأولى على سرير ماريس نونشالان، ذي المظلّة، أثناء غيابها مدّة ثلاثة أيّام. ابنُ أختها، طالب الثانية والعشرين. ليس لديَّ ما يثير الضّحك لأقوله، لا حقوق في شيء مُثير ولا حتّى شرّير. رومان شابّ لطيف، جيّد في الفراش. قالت لي إليزابيت إنّي محظوظة، لأنّ المرّة الأولى تكون دائما مُرهقة ومشحونة بالصّفاقة وأنّها تترك لدى المرء مذاقا سيّئا. حسنا، أنا محظوظة. في الواقع، لا أفهم، لمَ قد يستحوذ هذا الاضطراب المحموم للأجساد على العقولِ بهذه الطريقة المهولة؟

مع ذلك، أنا أتقدّم. عرفتُ الآن، أنّ في وسعي القيام بأشياء لا أعرف سببها: رومان، لا شيء في حياتي، تقريبا لا شيء. معه، اخترتُ خوض العالم الفسيح الذي يُحرقُ ويُزهر. نهاية جوان، أخذني إلى عائلته، حيثُ قضّينا جزءًا من العطلة. بداية أوت سنذهب إلى باريس. آه، باريس.

ها هو ذا، إذًا، شابٌ تائه كمولود جديد، اثنان وعشرون عاما من الاحتجاز والتعقّل تذوب أمام لحمي الوردي والعاري، أب يعملُ عدل إشهاد، أمّ طيّبة كبيرة القلب، محامية مُتخصّصة في الدّفاع عن الزّبائن اليائسين، طفولة مُشكّلة بعناية في آداب الجلوس إلى الطّاولة وعدم الحديث عن الذّات إلاّ في حدود اللّياقة، دراسات ليُصبح عدل إشهاد مثل الوالد والجد، اثنان وعشرون عاما من الطّاعة والتبصّر تبخّرت لدى لقائه بي، كتب الحقوق المُغبَرّة، الخدّ الذي أُهملت فوقه لحية كقنفد، مسكينة عائلة كيرڤوك، لا داعي للتّضحية من أجل الأبناء، إنّه أمر زائف.

شهدت ماريس نونشالان، باعتزاز، على تطوّر الفوضى. منذ اللّحظة التي يغسل فيها ابن أختها يديْه حالما يدخل البيت، فإنّ بإمكانه أن يُجنَّ قليلا، أن يُهدر جميع أمواله ليهديني مناديل الرّأس الحريريّة الخضراء وأطنانا من الشّكلاطة - أعشق الحرير، اللّون الأخضر والشّكلاطة السّوداء. كانت تقول لي: إنّ رومان يعثر على عمره على الأقلّ. أعرف آل كيرڤوك جيّدا، وصدّقيني آنستي، أن يكبر إنسانٌ في تلك الأسرة هُوَ أمر مُضحك أكثر من أن يُمضي

طفولته في متحف.

تحتلُّ الأسماك جدارا بأسره في المكتب. إنّها من بين أوّل الأشياء التي أطلعني عليها والد رومان لدى وصولي مباشرة. حوض ضخم، جدار مائي تنزلق فيه أسماكٌ من كلِّ الألوان، كانت بينها أسماكٌ في حجم الأظفار: إنّها مريحة للزّبائن. ترين هذا الأخضر والأزرق ذا الرّأس الشّبيه بالمطرقة، إنّه الوافد الأوّل. استغرق جلب البقيّة عشرة سنوات، وجدتُها أثناء رحلاتي إلى المكسيك، والهند، وكلّ مكان. كلّ واحدة منها يقابلها توقيعُ عقد مُهمّ.

لكلّ بيت رائحته. للسِّركِ رائحة النشارة الرّطبة وفرو القطط الكبيرة. تضوع من منزل آل كيرڤوك رائحة شهد النّحل والنّباتات الجافّة. استُقبِلتُ بحفاوة، أو على الأقلّ هذا ما ظننته. مرّت أيّام، وأدركتُ أنّ العائلات من هذا النّوع لا تستقبل، إنّها تلاحظ. كان آل كيرڤوك فخورين بشجرة العائلة التي تمتدّ إلى القرن السّادس عشر. تطلّب الأمر قرونا كي يصير للشّجرة أغصان وأوراق وثمرة صغيرة اسمُها رومان. وصلتُ إلى اللّوحة كعصفور تحوم حوله الشّكوك. مرّت طريقتي في الأكل والكلام والصّمت والضّحك واللّباس، على الغربال. نزلت نظرات الأسف على رومان أوّلا، على لحيته النّاشئة، ملابسه المكويّة جيّدا، هوسه بإمساكي من خصري طوال الوقت. أقرأ على وجه والده المبتسم: لا بأس ببداية رديئة لكلّ عدل إشهاد. الأمّ قدّيسة، واحدة أخرى، لكنّ الأخيرة شيّدت قوقعتها وهي حيّة. الجميعُ هنا مزهُوّ بإذعانه الخاص، تلك المسيرة

الباهرة التي رفضتها مقابل مساعدة الفقراء – مسيرة، لابدّ أنّها كانت موعودة بها: النّجاح لدى آل كيرڤـوك أمر مُحتّم. رمقتني من أعلى مثاليّتها العزيزة عليها وقرأتُ في عينيها: العاهرة الصّغيرة وضعت مخالبها على الفتى، لا يجدر بها أن تظلّ هنا كامل الصّيف، فلتمرّ العاصفة أوّلا.

لم تمرّ العاصفة. كان رومان يزداد تعلّقا بي يوما بعد يوم. كما لو كان قانونا، مثل قانون الجاذبيّة: كلّما بدر منّي البرود، كلّما تأجّجت ناره أكثر. الفضول هو الذي يقودني حيثُ يريد. وهو الذي يجعلني أبقى. أنا، إذًا، من يتسبّب في كلّ هذا؟ هل لي أنا القسم، ورسائل العشرين صفحة التي يكتبها لي رومان كلّ ليلة ثمّ يُهديني إيّاها حالما أستيقظ، في الوقت نفسه الذي توضع فيه أمامي القهوة وعصير البرتقال؟ في الواقع، كانت تلك الرّسائل تضجرني، أصرف عنها النّظر عند الصّفحة الخامسة. أمّا رومان، فلم يكن يتعب من قراءتها. بل إنّه يجدها جميلة إلى حدّ جعله يُفكّر في جمعها في كتاب.

كان واحدا من أماسي جويلية الأخيرة. تناولنا العشاء مع الأب والأم تحت الزّيزفون أمام المنزل. خلال التّحلية، أعلن رومان عن قراره: سيُغيّر المسار، سيهتمّ بالأدب، يجب أن تضمّ العائلة غير عدول الإشهاد، في النّهاية. خفضتُ عينيّ وصوّبتهما نحو كعكة الميرابيل. صمت الوالِدان. أحسستُ برصاص نظراتهما يثقل كاهلي. الأب، هادئا، رصينا، ينهض ويأخذ ابنه من كتفيْه ويستدير نحوي: تسمحين آنستي، أريد أن أقول لرومان كلمَتَيْن. دخلا مكتب

الأسماك. استغرقت في تأمّل طبقي. أحصيتُ الميرابيل، واحدة واحدة. نحنحت الأم، وسعلت، أخذت إبريق ماء وغابت به في المطبخ. بقيتُ وحدي، تحت سرب من الحشرات اجتذبته أنوار الفوانيس. لم يكن المكتب بعيدا، أصختُ السّمع: في البداية صوت الأب الخافت، ثمّ صوتُ الابنِ المرتعشُ، فجأة ضجّة كبيرة، والآن خرير كما لو أنّنا على ضفاف بحيرة يهبّ فوقها ريح ضعيفة: رومان، رومان الفتى العاقل، الرقيق، بعد عجزه عن الشّرح، أمسك بمنفضة الكريستال وألقى بها على حوض الجدار المائي، وانفجر الزّجاج، ساحت المياه في الغرفة، وراحت السّمكات تهتزّ فوق السجّاد، الأخضر والأزرق يحتضر الآن فوق ملفّ ميراث.

وها نحنُ الأربعة، رومان، والِداه، وأنا، والماء الذي يصل إلى الكعوب، ننظر في صمت.

انفجرتُ ضاحكة، أخذتُ رومان من ذراعه وقبّلتُه طويلا، طويلا. حلّ الحبّ محلّ الفضول هذه المرّة: كيف لا أُغرَمُ بمن أحدث طوفانا جرف قرونا من الجدّية والذّوق السّليم؟

مُبكّر جدّا على الزّواج يا فتاة. أريد أنا وأبوك أن نمنحكِ مُوافَقَتنا، لكن احترسي، يظلُّ السّجن الجميل المُريحُ، دائما سجنا. دخوله سهل للغاية لكن الخروج منه يتطلّب الكثير. لا أقول إنّ رومان سيكون سجّانك، صديقُك رائع، أنا أقول أبشع من هذا: سيكون كلاكما سجينا. ليس هناك حارس لهذا السّجن، لن تكون هناك أبواب، ولا قضبان، لا أقفال - لكنّه سجن. أقنعتُ والِدَكِ بتوقيع الأوراق. سأرسل لك التّرخيص الأبوي عبر البريد. عرفتُ دائما كيف أجعل والِدَك يقتنع، هذا ليس صعبا، فهو مثل أغلب الرّجال، يخلط بين الغضب وبين السّلطة، صرخ في البداية عندما أخبرتُه بنيّتك الزّواج، بعد ساعة سألني عن الملابس التي سيرتديها يوم الزّفاف. مع الوثيقة، دسستُ في الظّرف بعض الأموال. الزّواج مشروع مُكلف على كلّ المستويات، جميلتي، حتّى لو لم تمرّي بالكنيسة، بالمناسبة أنا أتساءل لماذا، لو كنتُ مكانك لقمتُ بالعكس، حتّى لو كان الأمر مُستحيلا، وددتُ لو أنّي تزوّجتُ والِدَكِ أمام الملائكة، ليس هناك أفضل من الملائكة ليشهدوا على ارتباط رجل وامرأة، إنّهم أفضل من موظّفي البلديّة، أخيرا، أنا

أخرّف، ثمّة أشياء ضروريّة في الحياة، أو لعلّنا نتصوّر أنّها ضروريّة والأمر سيّان في النّهاية، لتتزوّجي إذًا، زواجا مدنيّا، أكون قد حذّرتُك، سبعة عشر سنة، سنّ مبّكرة على الزّواج، لكنّي سعيدة لأنّك لا تصغين إليَّ، إنّها علامة إيجابيّة، لقد أحسنّا تربيتك، صغيرة، علّمناكِ ألاّ تسمعي سوى قلبَكِ فحسب. أتمنّى أن أكون مخطئة، أعرف أنّي لا أخطئ، لا فرق، الدّرب الأمثل للأطفال ليس هو درب الآباء أبدا، سأتوقّف عن إسداء النّصائح، لأنّها بلا فائدة، سترينَ، سأقفل الآن، سيقول لي والِدُكِ إنّي أمضي أيّامي مُعلّقة بالهاتف، بائع الورد يقول لي الشّيء نفسه، لكن بطريقة حنون، خفيفة، هيّا، قبلاتي، يُقبّلُك التّوأمان، الجميعُ يُقبّلك هنا، نلتقي السّبتَ القادم من أجل الحفلة.

دام الحوارُ ساعَتَيْن. أخيرا، أشكّ في صحّة تسميته حوارا: لم أقل شيئا، تحدّثت أمّي بمفردها، كالعادة على شفا أن تضحك أو تُغنّي. يطمئنني صوتُها. أن تكون أمّي هناك، في مكان ما، حيّة في ليل الرّيف، تحدّثني أنا، التي استقرّت للتوّ في باريس، أن يرتدّ صدى صوتها السّحري ساعة بعد إنهاء الاتصال قريبا من ساحة «لا باستيْ- La bastille»، أمرٌ يكفيني لأشعر بالسّعادة، إنّه ترياق الموت. رأيتُ الموت، البؤس، الجنون، فور دخولي إلى باريس، عبر باب «أرليون- Orléans» مزاريب ثلاثة، تحرس المدينة الكبيرة. موت، بؤس، جنون. ثمّ نسيتُ هذه الرؤية، أصبحتُ باريسيّة: مُتعجّلة، قلقة، مرحة، مُبذّرة، مُفلسة. كنتُ أعيش وسط مملكة معاناة وأموال. ثمّة دائما طريقة كي نتدبّر أمرنا. ما ينقص هنا، نجده

هناك. ذات يوم، مثلما فعلتُ مع أصدقائي في المعهد، سجّلتُ في دفتر الأماكن التي تُعجبني أكثر من غيرها في باريس: حديقة اللكسمبرغ، أشجار متحف رودان، الميدان الصّغير، الخ. تفحّصتُ ما سينتج عن هذا الكلّ وابتسمت: ما أحبّه في باريس هو الرّيف. ركني المفضّل هو مقبرة «الأب لاشيز». أجد فيه اللّمسات المُضيئة لطفولتي، القليل من الانشراح المتأتّي من السّرك والذي تواصل إلى أعماق القبور. مباغتة الأشجار بين الصّلبان، وثبات الشّمس فوق ممشى الحصى، وأوبرا أمّي: لدينا حديقة بمحاذاة المقبرة. كانت أمّي تضع الغسيل ليجفّ على الجدار الفاصل. كانت تنشر الملاءات البيضاء على العشب الأخضر، وهي تترنّم بألحان إيطاليّة. كان الأموات في المقصورة الأولى، لابدّ أنّهم مُستمتِعون. أمّي امرأة خالدة. أعرف أنّ الموت سيتسلّل يوما إلى جسدها وأنّ الرّوح ستخرج حتّى لا تختنق، كي تواصل التّحليق في البوادي، بصورة مُختلفة. أعرف هذا جيّدا، لكن، وأنا أنتظر هذا اليوم الذي من الأحرى ألاّ أنتظره، أجد سعادة مجنونة في الإنصات إلى صوتها، الإنصات إليه وليس سماعه، ليس للكلمات أهمّية كبيرة، ما الذي قد نقوله في الحياة، عدا صباح الخير، مساء الخير، أحبّك، وما زلتُ هنا، لبعض الوقت، حيّةً على الأرض نفسها التي تؤويك. أن تفصح لي أمّي عن أفكارها المتعلّقة بالزّواج، أو أن تعلّمني وصفة الأرنب بالزّبيب، فذلك سيّان. يتغيّر الخطاب ويبقى الصّوت، الصّوتُ هو الذي يقوم بدوره الأساسي، الذي يُحيّي، الذي يُكرّر، ويُلحّ: أنا هنا، إذًا، أنت هنا أيضا، حيّة مثلي أنا، لمَ قد يبتدع المرء أكثر من هذا؟ هذا

كافٍ كمبادلة.

جاء الزّواجُ بعد الفيضان، إذًا. ساح ماء الحوض بأكمله وأُلقِيَ بالأسماك في حاوية القمامة، قدّر والِدُ رومان خسائره. ملايين كثيرة. الوضعُ بسيط، قال لنا: إمّا أن يُواصل رومان في طريق الدّراسة على أن نحجم عن الحديث في الموضوع نهائيًا، أو أنْ يُصرّ على لعب دور الفنّان، وفي هذه الحال، عليه أن يثابر في ذلك حتى يعوّض الخسارة. اقترب رومان من والِدَيْه بوجه شاحب، قبّلَهُما، وأخذني من خصري وخرجنا. على العتبة، استدار وخاطب أمّه: سأتوقّف عن الدّراسة، وسنتزوّج في سبتمبر. كانت المرّة الأولى التي أسمعه فيها ينطق كلمة زواج. لم أقل شيئا. ليس لديّ ما أقوله. ولِمَ لا؟ وجدتُ بوصلتي، حدسي، معادلتي السّحريّة: سنرى. وهكذا، صعدنا إلى السيّارة، تجاوزنا القرية في اتّجاه الطّريق السّريعة. خيّم الصّمتُ في السيّارة، ثمّ ندّ سؤال، سحقته الإجابة التي نزلت عليه بسرعة: ألن تؤاخذني يوما رومان؟ طبعا لا: لِمَ قد أؤاخذك؟ الصّمتُ من جديد. رومان معه حقّ: فيم سوف يؤاخذني؟ أسرعت السيّارة، السّماء فسيحة، أحسستُ بقليل من البرد، من الطّريف أن أشعر بالبرد في موجة حرّ.

الزّواج في الكنيسة وليس في البلديّة، أمر شبيه بالحرق بَدَل الدّفن: حفلة سرّية يطغى عليها الانزعاج. لا يهمّ. رومان هو الذي أصرّ. ما من أرغل، أو مذبح رئيس أو فستان أبيض. كان ذلك بمثابة الحساب من دون عبقريّة أمّي: أخطرت أهل السّرك، كانوا

جميعا هنا في قاعة الأفراح، ببدلاتهم، المُهرّج في زيّ المهرّج، البهلوانيّة في زيّ بهلوانيّة، مُروّض الأسود في زيّ مروّض أسود، الجميع دون استثناء، بل كان هناك قرد صغير على كتف المُهرّج. أما بائع الورود، فقد جرّد محلّه من الورود البيضاء، سيرنغا، سوسن، ورود، توليب، لَيْلَك.

في غياب الملائكة شهد مُهرّج على عرسي. ثلاثة ثوانٍ للإمضاء، كانت كافية لتُلعَبَ اللّعبة: اسمي السيّدة كيرڤوك. اسمٌ غريب. يلائمني: إنّه يُشبه الأسماء التي كنتُ أبتكرها خلال مُحاولاتي للهروب.

لم أبرح النّزل مدّة ثلاثة أيّام. زكام سيّئ. لا: نزلة برد رائعة. القليل من الحُمّى والكثير من الرّؤى. قدّم لي المالك الفطور في غرفتي. كعكا وقهوة وعسلا ينام الذي صنعه في مملكته على بعد كيلومترَيْن من هنا.

لم أكتُب، لم أستمع إلى الموسيقى. ما زلتُ أحبّ الضّخم، فأنا وفيّة بطبعي، إلى درجة أنّي أحتاج أحيانا إلى راحة من ذلك الطبع، والابتعاد، وأن أخفق بجناحيَّ فوق الشّجرة المجاورة. خنتُ الضّخم هذه الأيّام مع آخر – ولمَ لا مع أربعة آخرين: لديَّ الرّغبة في سماع البيتلز. لا أخرج أبدا، ولم أجرؤ أن أطلب من موظّف الفندق أن يشتري لي شريط تسجيل.

اعتنيتُ بالأنفلونزا كأنّها صديقة. أفتح النّافذة ليلا على رطوبة

الصّنوبر. كنتُ أعشق هذا النّوع من الأمراض حين كنتُ صغيرة. كانت تزيد من اهتمام الآخرين بي وتمنحني بعض الألعاب غير المتَظَرَة. عندما تأتي الأنفلونزا فإنّها تحمل معها أشياء جميلة جدّا: الرّوحَ التي تسبحُ على بعد سنتيمترات فوق الجسد المُلتَهِب، المدَّ النّافذَ الذي يعبُر كافّة الأعضاء، نوعا من الملل الذي لا يُصيبني بالسّأم. في استطاعة العالم أن يكون بسيطا: قطعة من السّماء نلمحها على السّرير من خلال النّافذة. أنفلونزا، حصبة، جدري، هنّ جنّيات الراحة الثلاثُ: يقصد الآخرون المدرسة وتظلّ أنت في البيت للّعب، تملك الحقّ في ذلك، لقد منحك الدّكتور رخصة خروج: تسمَحُ لك بالغياب عن العالم وعن الحياة ثلاثة أيّام على الأقلّ.

أفكّر في رومان. لكن، ربّما من المُستحيل التّفكير في شخص آخر، عدا نفسي. أو لعلّه مفعول الأنفلونزا: ليس ثمّة غيري في أفكاري عن رومان. أتساءلُ ماذا أصبحتُ، بعد كلّ هذه السّنوات في عَيْنَيْ هذا الشّاب. لعلّي في عيْنَيْه الآن، ما مثّل هو في عَيْنَيَّ دائما: شبحًا. لم أعرف الكثير عنه. نحنُ لا نعرف الآخر إلاّ من خلال الحب، وأنا أحببتُه قليلا فقط. هذا ليس ذنبه. أنا أيضا بريئة ولا ذنب لي في ذلك. ثمّة في كلّ مكان، ذرّات حبّ طائشة. أحيانا، تتكثّف ثمّ تسقط فوق رؤوسنا كالمطر. أحيانا لا. الأمر مُرتَبطٌ بإرادة أكثر من كونها أمطار ربيع غزيرة. كلّ ما علينا فعله هو البقاء في مأمن أغلب الوقت. لعلّ هذا هو ما يطرق على نحو خاطئ في الزّواج: فوق هذه المطريّة.

نزلتُ في فستانٍ مساءَ أمس من الغرفة إلى الصّالون. كان الوقت متأخّرا. لم يكن هناك سوى شخص ثمل نائم أمام التلفزيون. فقرة تلفزيونيّة عن الكتب، تافهة كالبقيّة. بائع الخمور يشخر، صحيفة رياضيّة منشورة على صدره كمنديل الرُضَّع، بين ذقنه وبطنه. جلستُ على أريكة، تصفّحتُ النّشريّات الدعائيّة حول جورا، موضوعة على ذمّة السُيّاح. أساطير، حكايات، اقتصاد. أعشق هذا النّوع من القراءات الحزينة. دليل أزرق، ورق نجده داخل علب الدّواء، مُلصَقاتُ مُصبّراتٍ، موجَز تقنيّ: أقرأ بتأنٍّ، بالكاد أصلُ إلى جملة حتّى أنساها. كانت لي ردّة الفعل نفسها أيّام المدرسة، أثناء دروس الجغرافيا أو العلوم الطّبيعيّة، أو أمام أبي حين يبدأ بتلقيني دروسا في الأخلاق: كلّما زعموا أنّهم يُعلّمونني، أتّخذ هيئة الطّاعة والغباء العميق، راضخة من الخارج، غائبة من الداخل. ينبغي أن تكون ساعة من ساعات الصّباح. قرأتُ نشريّة عن صنع الألعاب الخشبيّة حين طرح التلفزيون فجأة شأنا مُغريا. نفرٌ يتحدّثون عن السّيدا، بينهم أطبّاء والآخرون مرضى. ما من تأثير، كانوا يبيعون العدم. وجوهٌ مُشرقة بكلام هادئ. بدا أنّ هؤلاء الناس يملكون وقتا لا نهائيّا. كلّ منهم يسمع الآخر دون مقاطعة، دون أن يُحرجه بالأسئلة، أو على نحو أفظع بالأجوبة. كما لو أنّ اقتراب الموت يجعل منهم، أخيرا، أحياء معا. أراحتني تلك الوجوه الجميلة كماء مُنعش. صعدتُ إلى غرفتي، نِمتُ فورا.

اكتشفتُ في ظرف خمسة عشر يوما أنّ حياة الأزواج مُرهِقة. خمسة عشر يوما، هذا كافٍ كي يعرف المرء، بل لعلّها مدّة طويلة. التعلّم برُمّته أمر شاقّ. لم أفلح في إغماض عَيْنَيَّ خلال اللّيالي الأولى، بسبب وجود رومان بجانبي. في الصّيف، عند أهله، كان لكلّ منّا غرفته المُستقلّة. كنّا نمارس الحبّ خطفا. كان له طعمُ الفاكهة المسروقة. يظلّ النّوم مسألة فرديّة، كلٌّ في غرفته الصّغيرة، مُمَدّدا بين الملاءات البيضاء، في عمق زورق من ظلال. النّوم كالطّفولة، يستحيل اقتسامُه سوى مع ذئب. أمضيتُ خمسة عشر يوما أبحث عن الوضعيّة المناسبة في سرير الزّوجيّة. نمتُ على بطني، رأسي نحو الجدار، ناسية، خفيفة. يُسهّل عليَّ رومان المُهمّة بعدم التحاقه بالفراش سوى في ساعة متأخّرة، بعد السّهر على كتاباته. رسائل الحبّ دائما. لم يعد يكتبها بخطّ اليد. كان يرقنها على الآلة. صوتُ لوحة المفاتيح لا يمنعني من النّوم، بالعكس، إنّه يُشبه سقوط حبّات المطر على سطح من الزّنك، أنشودة مُطَمْئِنَة. غيّر كتابُ رومان عنوانه عديد المرّات. سمّاه «تجاوُز»، ثمّ «العودة إلى المُرسِل». اليوم، «فواجِع». أنا من أوحيتُ له بهذا العنوان. «فواجع»، موسيقى

رائعة بالنّسبة إلى مجموعة رسائل غرامية واحدة.

عثرتُ على وظيفة: بائعة في محلّ للعطورات. أجلب معي ما يكفي من المال لاقتناء الحاجيات، لدفع الإيجار وثمن شرائط الآلة الكاتبة. وضعٌ يلائم المرأة المُتزوّجة حسب تصوّري: كلُّه لك حبيبي. ابقَ في البيت، لا تهتمّ سوى بالكتابة، سأطعمك. أرى نفسي جميلة في دور خادمة الكاتب. أحبّ صورتي هذه.

وعرفتُ عشيقا. فور دخولي الشقّة الفارغة. لم يكن يُشبه أولئك الذين يتخطّفنهم زبونات محلّ العطور. تُعجبني هذه المهنة كما لو كانت حفلة -أنت الزّبونة وأنا البائع-. الزّواج أيضا يُشبه اللّعبة - نقول إنّك الزّوج ونقول إنّي الزّوجة. عرفتُ قصص كبار الحيّ. لم أكن أبيع العطور فحسب، أعتني أيضا بالنّساء اللاّتي يأتين لإزالة الشّعر في الحجرة الصّغيرة خلف المغازة. يتحدّثن فيما بينهنّ، كنتُ أسمع. اتّخذتُ عشيقا، لكن ليس كهؤلاء النّساء، ليس زوجا ثانيا، زوجا لنصفِ الوقت. يظلّ عشيقي يحوم تحت نافذتي طوال الوقت. لا يشعر رومان بالغيرة. إنّه مُخطئ. صباحا، مساءً، تُحلّق أفكاري مع عشيقي، تتألّق عيناياَ بسببه ويُردّد قلبي أناشيد الغزل: شجرة زيزفون في قلب شارع «لا باستِيْ»، هنا في السّاحِة الداخليّة للعمارة. اخترتُ الشقّة من أجله. يجدر القول إنّه كان مسرورا للغاية يوم التقينا للمرّة الأولى. كان يرتدي ملابس الخريف، ويحترق بنار أرجوانيّة، كيف يُقاوَمُ إغواء مماثلا؟

تفاقم كتاب رومان. لم يعد كتابا، بل أصبح أعراضا: أربع مائة

صفحة متراصّة. يكتب ليلا، وينامُ، يذهب إلى المقهى بعد الظّهيرة. أرافقه أحيانا. ينتقي المقهى بالعناية نفسها التي يبحث بها عن جملة فاتنة. ارتاد سبعةً قبل أن يجد ضالّته في هذه الأخيرة. إنّهم أربعة، دائما حول الطّاولة نفسها، رومان، ألان، لوك، إيتيان. أربعة دُعاة. مسيحُهم هو الفنّ. إيتيان فقط كان يعمَل في بنك. كان يكتب الموسيقى بين جدْوَلَيْ مُحاسبة. ألان رسّام، هيئته تدلّ على ذلك على الأقلّ، غليون، شعر يلامس عيْنَيْه، منديل حريري بنفسجي، بنطلون مخملي أسود فضفاض. لوك، مثل رومان، يسير على خطى فلوبير. يتحدّثون ويشربون. يُعيدون تشكيل العالم. أخيرا، أربعتهم يعيدونه كما كان وأنا أتفرّج عليهم. أعتقد أنّي تعلّمتُ الانقطاع عن حبّ رومان جرّاء تلك الأمسيات. لا، بل لم أعد أحبّه البتّة. أعرف أنّ العالم غير جدير بالثّقة وأنّه من الضّروري إعادة ترتيبه من جديد -أو تشويشه- سيكون في مُستطاع الذّئاب واليهود وأطفال «كريتايْ» التّجوال دون خوف. أعرف جيّدا، لكن هنا، بين أمجاد الأدب، أمجاد الأربعة المجهولين، والموسيقى والرّسم لا أرى ذئبا أو يهوديّا ولا وجها من وجوه كريتايْ. لا أرى سوى طموحات، أربعة عقول جادّة، ثقيلة، ثقيلة، ثقيلة. لا جدوى من إعادة خلق العالم، تكفي إعادة توضيبه كي يصبح لنا موطئ قدم، أكبر حيّز ممكن، الموهبة تقتضي ذلك.

لا يبدو أنّ النّاشرين قد فهموا موهبة رومان. أتمّ مخطوطه. أرسله إلى خمس عشر دار نشر. مرّ شهران وبدأت رسائل الرّفض تتهاطل على علبة البريد. جميعُهم حمقى، غمغم رومان، اضطُرَّ

رامبو لينشر على حساب المؤلّف، دليلا على بؤس بيئته.

علمتُ، إذًا، أنّي أنام كلَّ ليلة بجوار رامبو، وهو أمر مُضحك: ألم يكن يُحبّ الأولاد؟ لا يُمكنني قول الأشياء التي يقولها رومان. فقد جميعَ أساليبه في الفراش. استقرّ الخمول في قلبه -وفي قلبي في الوقت نفسه- وانتقل إلى دمه. عندما كانت تصل إلى متناول أصابعه، كانت تتبدّل قسوة. لا أمانع. مضى ابنُ العائلة الكبيرة إلى حال سبيله، حلّ مكانه فنّانٌ متجهّم. لكن، لكن، ثمّة ما ينقُص في الخشونة كما في اللّياقة. شيء ما أو أحد ما. أسمحُ لرامبو بالاندفاع نحوي بحماس غائصا برأسه وسط وسادة ريش الإوزّ، وأرى من بعيد عشيقي الرّائع، شجرة الزيزفون ذات الأوراق الحسّاسة للنّسيم: حظوظه أوفر منّي.

غادرتُ محلّ العطورات لأنتقل إلى مكتبة. قبو قريبا من «هول- Halles»، محلّ مقايضة. يأتي القرّاء للتخلّص من مكتباتهم. أقوم بالانتقاء. أغلّف كتب الأربعة قروش في ورق بلاستيكي، والكُتُب النّادرة في ورق الكريستال. بدأ رومان في كتابة مخطوطه الثاني. انتهى المطافُ بالأوّل في ساحة العمارة، مُمَزّقا ورقة ورقة. كانت أحد ليالي جانفي، من دون ثلج. عند ساعة مُبكّرة من النّهار اكتشف الحارس والجيران رسائل غرام متناثرة تحت شجرة الزيزفون، ثلجٌ غير متوقّع، طفوليّ مثل الآخر.

خرج الزّفافُ من الكنيسة. مرّ الموكب من أمام النّزل حين سقطت فوقه أطنانٌ من المياه واللّيل. كان الرّعد يُدمدِمُ ككلب منذ بداية النّهار. لابدّ أنّ صراخ الأطفال قد أثاره. مالت الكوكبة نحو النّزل للاحتماء. قدّم لهم المالك نبيذا ساخنا بالقرفة. كنتُ وحيدة جالسة في عمق الصّالة أقرأ صحيفة. دعوني للانضمام إليهم. لا أدري ما الذي يحرّك مشاعري عند رؤية عروس شابّة. كانت هذه صغيرة جدّا، طفلةً، بدا فُستانها الذي أساء المطر معاملته كممسحة وتمزّق تاجُها الزّهري. لم يعرف زوجُها الأكبر منها ماذا عليه أن يفعل. أخذ وجهها الصّغير بين راحتيْه الكبيرتين وداعبها برقّة، مُحاولا إضفاء القليل من الدّفء عليها كما لو أنّها حيوان أليف. ولم يُغادرني بنظراته. أعجبتُه، كما هو مُلاحَظ، ولم يُضايقه أن يحدّق في هذه ويواسِيَ الأخرى. ابتعدت العاصفة للقنص في مكان آخر. نهض الموكب مُحدثا ضجيج كراسٍ، أرادوا دفع ثمن النّبيذ، لكنّ المالك غضب، خرج الزّوجان أوّلا، وألقى الزّوجُ عليَّ نظرة أخيرة. كان هناك شيء ما شاقٌّ في تلك النّظرة، مزيجٌ قذر من الشّهوة والحزن: وددتُ مضاجعتكِ، تعلمين، لكن كما ترين أنا عالقٌ مع

هذه. ليست هذه هي المرّة الأولى التي أُلفتُ فيها انتباهَ رجل بنظرات مماثلة. الضّوء المُبَلّل نفسه الذي يعبر عَيْنَيْ رومان، حين أدعو إلى البيت إحدى المكتبيّات اللاّتي تشتغلْنَ معي. عليَّ أن أكون حذرة. يجب أن أحترس من هذه الأفكار التي تجتاحني أحيانا. إنّها أفكارٌ مُزرية ومُثيرة للشّفقة. إنّها فكرة أنّ ارتباطَنا خاطئ، بل أفظع: هزلي. نعم، يبدو لي أحيانا أنّ أحاسيسنا، حتّى العميقة منها، لديها جانبها الكوميدي غيرَ القابل للمحو. لا يدينُ عمقُها للحبّ بشيء، ويدين بكلِّ شيء للحبّ العفيف. نحنُ نبكي أنفسنا لأنّنا لا نُحبّ غيرنا. فكرة كهذه بالكاد تُنسبُ إلى الحمق. بل إنّها تُصبحُ كذلك، حين تجلب الحزن على أعقابها. لا أعرف ما الحقيقة. نعم، الحزن، أعرفه: كذبٌ ولا شيء آخر. حفظتُ هذا عن أمّي. وعن الضّخم. بل حتّى من رومان، خلال الأشهر الأخيرة. كان يقرأ شاعرا. قرأتُه معه. حياة الأزواج لا قرار لها، إنّها هائلة. قد تُدَمَّرُ من جهة، وتستمرُّ من جهة أخرى. حياةُ الأزواج حيوانٌ مُقاوم، يطول موتُه. آرتو. أنطونين. آرتو: اسمُ الشّاعر الذي قرأه رومان. قرأتُ إثرَه: الجُمَلَ التي سطّرها. أذكُر هذا، في رسالة كُتِبَت لـــرووديز، نهاية 1945 على ما أظنّ: مزاجُ الرّوحِ يُنسي الرّوحَ. أنا أقولُها هكذا: مِزاجُ الرّوح يمنع الرّوح من المجيء. وأضيف: ما الرّوح؟ طبعان لا أملك إجابة. لديَّ آلاف الأسئلة المُشابهة. نزلتُ من النّزل كي تستنشقَ أسئلتي الهواء، وكي أنظر. النّظر هو التّفكير. قبل أن تنام في الكُتُب، تجوب الأفكار العالم، تخرج من الصّور التي اشتقَقْناها. ثمّة على وجه العريس مسحة لا يُمكن إيجادها في أيّ كتاب عن الزّواج.

نسيتُ أشياء كثيرة. ولا أنسى أبدا هذا النّوعَ من اللّقطات. حياتي الأولى، حياة البدو الرُحَّل، علّمتني كيف أرى العالم. تتشابه المُدن في عيون الغجر أهل السِّرك: ضاحية خالية صلعاء، وموحلة قليلا. لا مكان للمُهرّجين في الأحياء الرّاقية. لا لأنّ هناك عالَمَيْن، عالم الأثرياء وعالم الفقراء. بل أقوى من ذلك بكثير: ليس هناك سوى عالمٍ واحد، عالم الأغنياء، على الجانِبَيْن أو في الخلف، يُخبرُ القالب الحجري عن نفسِه من خلال قمامته. أذكر اليوم الذي أخذني فيه والدي إلى شارع جميل في «نيس». كان يبحث عن هديّة بمناسبة عيد ميلاد أمّي. دخلتُ معه مصاغة. كان وجهي مُتّسخا، كنتُ قد لعبتُ بالتّراب مع بقيّة الأطفال صباحا. لم يكن أبي حليق الوجه، وبُقَعُ شحم تُعفّر بنطلونه. لا أنسى أبدا نظرات البائعة التي سدّدتها لأبي. تجربة الإهانة تُشبه تجربة الحبّ، إنّها غير قابلة للنّسيان. لا أعرف ما الرّوح. أعلم من أيّ منطقة في الجسد تتبخّر، إلى أن تزول تماما: نقطة داكنة صغيرة في حدقة العينَيْن. الحقد. الأبشع، تلك الشّرارة التي انطلقت من عَيْنَيْ البائعة، الوجه الذي تهلّلَ لدى رؤية الأوراق النّقديّة التي أخرجها أبي من جيبه. تتبدّل عيون النّاس أكثر من تبدّل عيون الذّئاب. ما نراه مُرعبٌ أكثر.

انتهت سنوات الـــ «رومان». لم أنتبه فورا. كي ينتهي أمر، على شيء آخر أن يبدأ، ومن المُستحيل رؤية البدايات. مضت سبع سنوات قضّيناها معا. اعتدتُ هذه الحياة المُقرفة. مع الزّواج، شيءٌ ما حيّ ابتعدَ وهذا الابتعاد مُريح بالنسبة إليَّ. أعتقد أنّ هذا هو ما يُسمّى حياة الأزواج، نهاية الطّفولة. أظنّ أنّها نهاية لا مفرّ منها. مضى عهد الهروب. أمّي هي التي لمّحت لي بذلك. شيء ما كان مُحلّقا خلال السّنوات السّبعة. عندما تكون المرأة عابثة قليلا، فليس من الصّعب التعرّف على رجل في ممشى اللكسمبرغ وأن تقول له شيئا بسيطا للغاية: خُذني معك. خُذني معك إلى مون-سان-ميشال، أو إلى پـيزيلاي، أو إلى غراند-شارتروز لتذوّق المحار، أو لحم العجل البورغيني، أو الغراتان الدوفيني. ونحنُ إلى الطّاولة، ستكون أنتَ من يُقرّرُ موضوع الحوار، سأصغي إليكَ، أحسنُ القيام بذلك. ليلًا في النّزل، سيكون هناك غرفة مُزدَوَجة، لا أدري بعدُ، هذا متعلّق بك، بالمتعة التي سأجدها في كلامكَ. نغادر فورا، هناك، دون إخطار أحد. سنعود غدا مساءً. قمتُ بهذا العرض، عشرين مرّة خلال السّنوات السّبعة، لم أحظ سوى بأربعة ردود. أغلب الرّجال

يرتبكون، يأسفُ كثير منهم ويشرحون لي بسحنة كلب مضروب أنّهم لا يستطيعون التغيّب دون إعلام مجموعة من النّاس الذين يتراوحون، بطبيعة الحال، بين الزّوجة وبين الله الأب. نادرون هم الذين يندهشون من اختيار الأماكن، التي كانت معابدَ غالب الوقت. أجيب هؤلاء أنّها رغبة مفاجئة للحجّ والنّشيد بالقرب من الحجارة القديمة، وحذو أيّ شيء ينبت تحت أقدام الرّهبان. أمّا رومان، فقد فسّرتُ له عند عودتي من أوّل رحلة: أشتاق إلى ناس السّرك، زرتُهم يومَيْن، وسأفعل من حين إلى آخر. كان نصف الكذب فحسب عندما حدّثتُه عن خليج مون-سانت-ميشال أو دير «هوتكومب»: كنتُ هناك، رغم انعدام صلتها بألعاب السّرك. لستُ فخورة برحلات الهرب. ولستُ خجلة. لم يكن هربا بمعنى الكلمة. تأمّلتُ الأمر مُطوّلا بعد ملاحظة أمّي: إن لم أختفِ فهذا يعني أنّي لا أحتاج إلى الاختفاء. يظلُّ الزّواجُ الطريقة الأمثل للمرأة كي تُصبح لا مرئيّة.

ما زال رومان يكتب كي لا يموت. كي لا يموت بردا في انتظار إجابة النّاشرين، اجتاز بنجاح مناظرة سكرتير بلديّة. الأب عدلُ إشهاد والأمّ محامية، خائبَيْن لكن مُطمئنَّيْن، أعادوا ربط الصّلة بابنهما. دسّا هديّة الزّواج في ظرف: صكّا أبيض، مُعَدٍّ لاقتناء شقّة. راتبان، إيجار، هكذا وجدنا أنفسنا أغنياء أنا ورومان. يُمكنني أن أبذّر الأموال على الكتب والفساتين، ما يجعلني أكسو روحي وجسدي.

انزلقت ورقة تحت الباب: نحنُ مدعُوّان إلى اجتماع المالكين في العمارة. الأمر متعلّق باتّخاذ قرار حول شجرة الزّيزفون التي عظُمتْ كثيرا: لامست أغصانها النّوافذ وفتحت بثر ظلال في السّاحة، مُثيرة حفيظة سُكّان الطّوابق الثّلاثة. كان مساءً. أحدّد: مساء ثلاثاء نهاية أفريل، هواء ربيعي يعمّ الأمكنة، لون أزرق ملحاح في السّماء، زهور تستعدّ للتفتّح، عطور بدأت تتسلّل. لم يكن رومان يرافقني: تمرّ بي عشرات الاجتماعات من هذا النّوع في المكتب، اذهبي وحدَك. ثلاثون شخصا حول الطّاولة. لا أعرف منهم سوى نفر قليل. أناقة. طبيب نفسي، يمارس مهنته في الطّابق نفسه الذي نعيش فيه. حلوانيّة، مُحضر، متقاعد من الجيش. أجهل كلَّ شيء عن الآخرين. وصلتُ متأخّرة. أحسستُ أنّ القرار قد اتُّخِذَ لقطع شجرة الزّيزفون، بالكاد جلستُ، نهضتُ، ونعتُّهم بالقَتَلَة والحمقى. دعتني الحلوانيّة لأزن كلماتي. وقف رجل، عملاق، لم أره من قبل، يُفتَرَضُ أنّه يعيش في الشّقة المقابلة لشقّتي، قال: الآنسة معها حقّ -اقشعرّ بدني وأنا أسمعُ كلمة آنسة، اعتقدتُ أنّ هذا لن يحدث مُجدّدا أبدا- الآنسة معها حقّ وأظنّ أنّها تُعبّر بطريقة مُهذّبة. هذه الشّجرة اختطفت الضّوء، هذا صحيح، لكن من منّا لم يحلم بذلك، أحتاج إليها في عملي، أحتاج إلى رؤية أوراقها، إنّها واحد من أقدم السكّان في العمارة، سنُّها جديرٌ بالاحترام، وفيما أعلم، لا يُعقَل قطع ساقَيْ الشّيخ لأنّه ألقى علينا بظلاله، أحذّركم، الأوّل الذي يلمس ورقة واحدة من أوراقها ستكون قضيّته معي، لا أمزح، أنا مثل الآنسة، أعتقد أنّ هناك مواقف لا يجب فيها الحفاظ على الهدوء. حام حول

الطّاولة ببطء، كان في ضخامة غول خرافي، توقّف أمام مالك الطّوابق الثّلاثة. أطالب بتصويت باليد المرفوعة، لننتهي من هذا الاجتماع الأخرق. أخيرا لا أحد صوّت لقطع الشّجرة. تقرّر فقط، مناقشة الموضوع السّنة المقبلة.

دعاني العملاق إلى بيته للاحتفال بانتصارنا، أنا عاجزة عن وصف بيتِه، لم يُغلَق الباب، بعد حين أخذني بين ذراعيْه، رفعني وقبّلني، خنقني تقريبا، رأيتُ غرفة ذات ستائر خضراء، وأخرى خالية من كلّ شيء تماما، سريرا في العمق، وأسنانه على وجه الخصوص، أسنان مُدخّن، اجتماع المالكين، كان رائعا، مسكين رومان، دام الاجتماع ثلاث ساعات بأكملها، ساعة حبّ، وساعتيْن للنّوم بين أحضان العملاق ذي الأسنان الصّفراء، لم نقل كلمة واحدة، أنا مُغرمَة، أفهم ماذا يعني أن يكون الإنسانُ عاشقا، لم يسبق أن شرح لي أحدهم هذا، زوجٌ لسبع سنوات أو مغامرات يوميْن لا يمكنهما أن يعلّماني الكثير، إنّها المرّة الأولى في حياتي التي أمارس فيها الحبّ، ما سبق لم يكن شيئا، ما كان موجودا من قبل لم يكن موجودا، ليس في وسعي مضاجعة الأرض بأسرها وهذا لا يُغيّر شيئا، ما دام القلب غيرَ مصاب، يحافظ القلب على عذريّته، لستُ متزوّجة، ليس لديّ أربع وعشرون سنة، لديَّ العمر الأبدي لحبّ المرّة الأولى.

عندما استيقظت، رأيتُ حبيبي في الظّلام بتاجه الملكي المرصّع بالنّجوم: الحبيبُ الآخر، هو شجرة الزّيزفون التي أنقذناها هذا

المساء. تعرّفتُ على شقّتي من خلال الأغصان، وعبر النّافذة المفتوحة، ظِلُّ رومان، على الجدار في العمق، مائلا على مخطوطه. عشرة أمتار بين الشقّة والأخرى. المسافات القصيرة هي المسافات التي يُمكن تخطّيها.

الضّخمُ في كامل لياقته. زوّدتُه ببطّاريات جديدة. ليلا، يعزف لأجل عيْنَيَّ سوناتا الكمان رقم 3 على دو ماجور، .BWV 1005 هذا ما هو مكتوب على شريط التسجيل-BWV 1005 .، سأرى هذا في لوحة سيّارة. والضّخمُ وراء المقود، في كامل هيئته، رقبة مُتصلّبة، وجه عابس، جادّ كقسّ. ثمّة ثلاثة أشياء تُريحني هذه الأيّام. الكتابة. نبيذ «أربوا». والسّوناتا الثّالثة. الأول والثاني سائلان: حبر وخمر. الثّالث أثيري: أجنحة وفرح. أسمعها ليلا كما لو أنّي إزاء معادلة بثلاثة مُعطيات محجوبة. تندّ تلك الموسيقى عن الحياة البرّية، قُدَّت من الانتظار، من التّعب والضّجر، إنّها تُحاول نسيان مادّة الأيّام العاديّة التي تُشكّل جوهرها، غذاءها وأرضها التي حلّقت منها: مُفتَتَح ثمّ تلعثم، زحف القوس على الأوتار دون رحمة، وبضربة واحدة، يجتمع كلُّ شيء ويُحلّق من أجل هروب عظيم نحو الهواء الطّلق الصافي.

جاء مالكُ النّزل يطرق بابي، ليطلب منّي التّخفيض في الصّوت. بعض الزّبائن اشتكوا ليلة البارحة. ولأنّ الموسيقى كانت مُرتفعة، لم أسمعه، دخل وباغتني أتحدّث مع الضّخم. ذُعِرَ لحظة. قلتُ له إنّي

هنا كي أكتب كتابا وأنّ الموسيقى تُلهِمُني. وخفّضتُ الصّوت. أحسَّ بالرّضا. تلقّى إجابة عن السّؤال الذي لم يجرؤ على طرحِه عليَّ منذ قدومي: ماذا جاءت تفعل امرأة جميلة في ركن مُهمَلٍ، أيَّ شجن جاءت تحضُن؟ كاتبة، راقه ذلك. في اليوم الموالي، دعاني لتناول الفطور مع زوجته. سألني: تعلمين، أنا أفهم الإلهام، لا أناقش الأمر، نحنُ نعيش الموسم الميّت، ليس لدينا ما يكفي من النّزلاء، أمّا الوافدون الجدد، فسأشرح لهم حكاية الضّجيج، يمكنك سماع الموسيقى كما تشائين، لن نخوض في الموضوع ثانية أبدا .

بعد قليل، خلال جولة، وجدتُ دمي عندما كنتُ في العاشرة، دم الهرب والفضول. مررتُ أمام دار للمُسنّين ودخلتُ. رواق يعجّ بالعجائز في ثياب النوم. لم أتردّد. لا أحد يرغب في رؤية مُسنّين فترة طويلة. حتّى المُسنّون لا يرغبون في ذلك. تحدّثتُ مع سيّدة تُشاهد التّلفزيون في صالة مُشتركة، وهي تمصّ حلوى النّعناع. لابدّ أنّها في الثّمانين أو الخامسة والثّمانين. قالت لي: عب، ليس هناك سوى مُسنّين في هذا المنزل. ضحِكتُ. أفهم جيّدا ما تقوله. أكبر إنجاز لهذه السيّدة خلال هذا اليوم هو كلب. كلب أصفر تجوّل في الأروقة ساعَتَيْن. لا أحد عرف من أين أتى. الحيوانات ممنوعة هنا. الحيوانات والرّجال. الحيوانات المسموح بها هي تلك التي لا أحد يُمكنه تجنّب قدومها: سناجب، عصافير، فقط في المتنزّه. الرّجالُ مُعتَقَلون في بناية مُقابلة. تنشأ حكايات من جناح إلى آخر، شجارات وسُخط: الحُمقُ والصّفح يرقصان أيضا في بيوت التقاعد، كما في كلّ مكان آخر. لا تأتي الحكمة مع السنّ كما يُرَوَّج.

الحكمة ليست قضيّة زمن، إنّها مسألة قلب، والقلب لا يخضع للزّمن. وعدتُ المرأة بزيارتها مُجدّدا. كانت تُذكّرني قليلا بعرّابتي في المعهد.

ثلاثُ سنوات مع العملاق، ثلاثُ سنوات واضحة، لكنّها في الحقيقة ثلاثة قرون، لا يسعني قولُ أيّ شيء حول هذا الحبّ، لا أستطيعُ سوى الغناء، لعلّي حبَّرتُ كلّ الصّفحات السّابقة للوصول إلى هذه اللّحظة، لعلّي ما صُغتُ كلّ هذه الجُمل إلاّ لكي ترى هذه الجملة النّور، جملة بثلاثة أعوام، فقط ببعض الفواصل، ما من نقطة نهاية أو هي أبعد ما يُمكن على الأقلّ، جملة مثل حبّ ثلاثة سنوات وثلاثة قرون، جملة كي أقول ما لم أقدر على قوله، هذا الفرح الذي يعتريني، يستحوذ على كياني وينتزعني من كلِّ شيء كي يُعيدني إلى نفسي، ويجعلني أنهض كما لو أنّ هذه «الأنا» ضئيلة للغاية، كم هي هزيلة ودون وزن، لم أكن قد وُلدتُ قبل هذا الحبّ، مُتُّ مع هذا الحبّ، عبرتُ من عدم إلى آخر، كان الأوّل ثقيلا وحزينا، الثاني مُشرق، جافّ وحيّ مثل دخول موسيقى، مثل ذبذبة قوس، مثل إحدى شقلبات جان سيباستيان باخ، كان هذا هو الدّرسُ الأوّل الذي تعلّمتُه من العملاق، اسمُه الحقيقي هو ألبين لكنّي أدعوه العملاق، اخترتُ أن أسمّيه هكذا، يناسبُه ذلك أكثر، ألفَيْتُني في قلبه مثل حيوان ليلي في غابة، إنّه الأمر الأوّل الذي تعلّمتُه منه، تذوُّقُه لباخ، جنونه بباخ، يسمعُ العملاق باخ ليلَ نهارَ، ليلا نهارا

يُنصت العملاق إلى أمّه باخ، جبلٌ من الأُسطوانات بمحاذاة سريره، الأعمال الكاملة للضّخم، ما من مقطع ينقُص، في البداية كنتُ أرى ولا أسمَعُ شيئا، في البداية كان باخ يخرج من الغرفة كلّما دخلت، نتقاطع عند المدخل، في البداية لم يكن العملاق يضعُ أُسطوانة حين أكون هنا، عزّز ذلك غروري، استخلصتُ من ذلك مقدار قوّتي، أنا غزيرة مثل لحن من ألحان باخ، حضوري سلسٌ وبلّوري ككورال، كمانات، نايات... والبقيّة، أقسمُ لكم أنّي أفكّر على هذا النّحو، لو قلنا فعلاً، دائما وفي أيّ مكان، ما يعبُر أذهاننا من أناشيد، فإنّ الحياة ستكون مُضحكة، أكثَرَ تمزّقا ربّما، أكثر حيويّة، هذا ما عِشتُه مع رومان خلال الأمسية الأولى، رويتُ له كلَّ شيء، إنقاذ شجرة الزّيزفون والغرق بين ذراعَيْ العملاق، إنّها آخر طرقي كي أحبّ رومان، فرصة أخيرة، ألاّ أخدعه، ألاّ أجعل من الزّوج الصّغير مريضا صغيرا، طفلا صغيرا، عاجزا صغيرا، أنت تُحبّني رومان، قلتَ إنّك تُحبّني، إليك هذه الحروق الجديدة، إليك مادّتي التي أتيتُ منها وتحلّلت فيها، أحبّ العملاق، لا أعرف عنه شيئا وأشعر أنّي حرّة على نحو سحريّ وأنا بين ذراعَيْه، أتنفّسُ بسحر، حرّة وممتلئة هواءً حتّى أنّي أعود إليه وأظلّ معك في آن واحد، حاول أن تتأقلم مع هذا رومان، حاول التكيّف معي، لقد أخذت ندفة الثّلج قلبي، صورة جميلة، أليس كذلك، في الواقع، هي ليست صورة، إنّها الحقيقة، ليس ثمّة ما يجب فهمُه، لا تقول ندفة الثّلج شيئا له معنى، ندفة الثّلج لا تجيد الرّقص طوال حياتها القصيرة، يذوب جلدي بينَ يديْ العملاق، يذوب جلدي وقلبي راقِصَيْن،

برفصان ذائبَيْن، يمكنني أن أقول لك هذا على نحو آخر لو أردتَ، أنا غنيّة هذا المساء، أنا غنيّة ولم أسرق منك شيئا، أحدهم منحني شيئا ما، ليس أنتَ، لا أحد يمكنه إعطاء كلِّ شيء، لا أحد يكفي أحدا، لا أحد الله، رومان، أحدهم حوّلني إلى كائن خفيف وشادٍ، ما دمتَ تُحبّني، لا ينبغي أن تغتَمَّ لهذا، أو فأنت تسلُكُ طريق الزّوج المخدوع، تلك الدّروب الموحلة، المُبتَذَلة، هل تذكُر زبون المكتبة، كم أضحكني، لم أستطع المقاومة عندما أسرَّ لي ذاك الرّجل صاحب الوقار المتغضّن، بصوته النّابع من كهف: «زواجي» يسير نحو الأسوأ، قُل لي رومان، لن تخوض تلك المياه الآسنة، لقد انفجرتُ ضاحكة في وجهه، لقد أحرجتُه حدّ الموت، ذاك الرّجل الصّغير الرّمادي، لا، صحيح، طريقته في التحدّث عن «زواجه» كأنّه عقار في سويسرا أو أوجاع موسميّة، لقد خُنتُك ألف مرّة، رومان، إن كان لابدّ من استنزاف هذه الكلمة التي تُضحكني، خرجتُ أربع مرّات مع أشخاص، كلّما حدّثتُك عن السّرك، كان ذلك في الحقيقة خروجا، رحلات كبار، كلّ ما قد يعيشه إنسانٌ راشد، رومان، إنّ كلّ ما نعيشُه سرّي، مسروق وجانبي، المشيُ تحتَ الرّذاذ والاستمتاع بوقع الكعوب على الحصى، استخراج جملة من كتاب ووضعُها على القلب لحظة، أكل فاكهة ونحنُ ننظر عبر النّافذة، يجدُر القول، أيضا، أنّ كل هذا أيضا خيانة، بما أنّنا نتلقّى من الخارج سعادة برّية، لا تدينُ بشيء للزّوج، لا شيء مُطلَقا، وأنت، ما الذي تفعله حين تكتب فيما أنا نائمة، حدّثتُ رومان هكذا، ساعة كاملة، مدّة ثلاث سنوات، أخيرا، ليس هكذا تحديدا، لكن لا بأس، بكى

المساء الأوّل، ثمّ ضحك، نعم ضحِك، ليس هناك فرق كبير بين الحالَتَيْن، الضّحك هو الدّموع التي تواسي نفسها بنفسها، ثمّ قال لي: سأفكّر، استغرق تفكيره ثلاث سنوات، رومان، ثلاث سنوات كي أفهم أنّه لا يتحمّل ما يظنّ أنّه قادر على تحمّله، حدث شيء خلال هذه السنوات الثلاث، حدث شيء للجميع، حتّى لباخ، شيئا فشيئا أصبح باخ يمكث حين أزور العملاق، مارستُ الحبّ على ألحانه وتحت مباركة الكورال، تلك الموسيقى هي ما بقيَ لي من ذلك الحبّ، بقايا جميلة، على ما أظنّ، تظلّ النافذة مفتوحة طيلة الصّيف، تكسوني الزّيزفونة بأوراقها، ليس بما يكفي، لأنّ رومان كان يلمحني عارية بين الأوراق، لم يكتب سابقا بالقدر الذي كتبه في تلك السّنوات، تغيّر أسلوبه، كيف أقول هذا، لم تعد كتاباته غارقة في ذاته، لقد أقام حداد نفسه، كان يمضي، يكتب عن حفلات غريبة، أو ببساطة، لعلّه كان يكتب كي لا يُجَنّ، صدر له كتاب، لم يُغيّر ذلك شيئا بالنّسبة إليَّ، كان لابدّ أن أرى العملاق كلَّ مساء، لم أفكّر أبدا في العيش معه، لن أتزوّج، على أيّة حال، رغم كلّ ما يهبني إيّاه من سعادة، لن أنجو، كان لابدّ أن يُجرّدني العملاق من ملابسي، أن يأخذني ويقذف بي في نوم وحش، نسيتُ ذكرَ مهنة العملاق، عمله الآخر، عدا إحراقي وجعلي أنام، عمله النهاري، العملاق هو عازف التشيلو الأوّل في أوبرا باريس، الأوّل أو الثاني، شيء من هذا القبيل، لديه منزلان، أحدهما شاسع والآخر صغير، لم أذهب إليه من قبل أبدا، كان دائما يرفض، الصّغير كان له وللتشيلو، غرفة قريبة من المسرح، في المنزل الكبير حيثُ نلتقي، لم يكن يجلب معه التشيلو

أبدا، يقول إنّه يستعدّ للعزف عليه، إنّه يفكّر في العزف وهو يتأمّل أوراق الزيزفون، حتّى يعرف كلَّ واحدة على حدة، يقول إنّ هذا مُهمّ بالقدر نفسه، تُعجِبُني هذه الأغنية، أغنية ألاّ تفعل شيئا كي تفعل بإتقان، وجدتُ صورة لما أعيشه معه، إعلان نهاية ولستُ حزينة، ما أتعلّمُه من العملاق هو ألاّ نعزف التشيلو كي نعزف عليه على نحو رائع لاحقا، تعلّمتُ أن أكون محبوبة حتّى لا أحتاج إلى ذلك وحتّى أعبر نحو الضفّة الأخرى، هناك على الجانب الآخر من الإحساس، خارج الإحساس، كي أمضي إلى ماذا، إلى الحبّ ربّما، مثلما هو الحالُ اليوم في هذا النّزل، حيّة، وحيدة، حبيبة الحبّ الذي يُمنَحُ في كلّ مكان، الذي يُتَقَبَّلُ في أيّ مكان، دون مرض الارتباط بأحد، عاشقة حبّ لا يرتبط بأب، بزوج أو عشيق، الحبّ هو قطعة متناهية الصّغر أقمتُ داخلها ثلاث سنوات، كانت استعدادا للحبّ، عِشتُ ثلاث سنوات في انتظار شيء آخر، لم أكن أعيشُ إذًا، كنتُ أحترق، وكان كلاهما يحترقان معي.

لديَّ مُشكلة مع الحبّ منذُ أيّام: أضجر. ليست لديَّ الرّغبة في الكلام، وأكثر من ذلك، لا رّغبة لي في أن يُكلّمني أحدهم. كنتُ أتبادل الابتسامات مع مالك الفندق، يكفي هذا الحوار. الشّيء ذاتُه مع الباعة في « شامپانيول». شامپانيول هي أكبر مدينة في المنطقة، أتزوّد منها بالسّجائر والشكلاطة والصّحف. التّبغ والحلويات حسب المزاج دائما. الصّحف، لا يمكنني تجاوزها مع أنّي لا أحبّها. أتمنّى كلَّ صباح أن أجد القليل من الذّكاء أسودَ على أبيض، لكنّي كنتُ، فقط، ألوّث يدي ببقع حبر دُهنيّة، من أجل لا شيء. ما يُدهشني، هي السّرعة التي يجد بها هؤلاء ما يكتبونه حول كلِّ شيء. في حياة عاديّة، ضائعة بشكل عادي، مُظلمة بشكل طبيعي، أحداثٌ قليلة تجري، وكي تُقال بتعقّل، يتطلّب الأمر سنوات وسنوات. هنا، تأتي الكلمات مع الوقائع في وقت واحد، ما يجعلُ الشيء الوحيد الذي يحدث هو الجلبة. إنّها مسألة أموال، أفترض: العديد من الصّفحات لتُملأ كلّ يوم مهما كلّف الأمر. المال والضجر: يضيعُ الصّمتُ والحبّ معا. نُمضي حياتنا في اتخاذ قرار فيهما. ذهبتُ في ذلك اليوم إلى دار المسنّين. ما زالت السيّدة العجوز أمام التلفزيون.

هجمت على حلوى النعناع التي قدّمتها لها. جلستُ إلى جوارها وتابعتُ البرنامج: مُنشّط سعيد لكونه هناك، مُفعَم بالسعادة، شاب، مُتعطّر، وسيم وذو راتب جيّد، يحاور ممثّلة. طرح عليها سؤالا: تجدين نفسك في جزيرة معزولة مع رفيق واحد، ماذا تختارين، حبيبا يمارس معك الحبّ طوال الوقت دون أن يقول لك كلمة واحدة، أو رجلا لا يلمسكِ أبدا لكن بإمكانه التكلّم معكِ في كلّ شيء؟ اختارت الإجابة التي لم ينتظرها المُنشّط: الرّجل الذي يتكلّم. مَذهولا، ومُصابا بالخيبة دون شكّ، سألها عن سبب اختيارها. قالت: الجنس، لا يدوم طويلا، لكنّ الكلام فيجب أن نستخدمه حتّى الموت، إنّه إجباري. بهذه الكلمة «إجباري» أردتُ دائما أن أهرب. أريد أن أصمت وأظلّ حيّة. الصّمتُ يُبقي قلبي على قيد الحياة. ليس صمت أبي الثّقيل، ولا صمت دور المسنّين. الصّمت مثلما في غابات «جورا» أو في عمق الصّفحة البيضاء. تنهّدت السيّدة العجوز. كانت صالة التلفزيون فارغة، كلَّ الأيام أحدٌ في هذه المؤسّسات الكئيبة. تفحّصتُ الجدران وزُجاجها المُتّسخ، الكراسي الفارغة، غلاف الأرضيّة. البؤس ليس في هذه القاعة، لكن على الشّاشة حيثُ الشابّ يواصل مهاتراته. يكمن البؤس في الخلفيّة الرماديّة التي تصبغُ كلَّ مكان، مانعة الحبّ والصّمتَ.

احتسيتُ قهوة في شامپانيول قبل العودة إلى النّزل. الفتاة النّادلة تُشبه إليزابيت غرانپـيل. لن أعرف أبدا ماذا حلَّ بفتاتي البرّية. ليس لديَّ عنوانها ناهيكَ أنّ وقتا طويلا قد مرّ. نعلم إلى أين يذهب

الموتى، لكن الأحياء؟ اختفاؤها أكثر غموضا من اختفاء الأموات. بقيتُ هكذا ساعات في الشّرفة. يا له من سلام. في باريس، أخيرا، في الشّوارع، الألوان، الضّجيج، لم أكن أشعر سوى بعصبيّة الأموال، تلك التي نطاردها ونخسرُها. صحيح أنّ العمل في السّينما لا يُرضي أحدا. الفِلم هو فقاعة صابون ترقص بضعَ دقائق في النّور. ليتحقّق إنجازُه لابد من البحث شهرين أو ثلاثة أو أربعة أعوام عن الملايين اللّازمة. وجبات، تنقّلات، مكالمات هاتفيّة. بعد ذلك، يجب جمعُ مائتيْ شخص، إطعامُهم، إيواؤهم، أجرتهم، وأن يمضي عام آخر، باهظة هي فقاعة الصّابون .

أعارني الفُندُقيُّ سيّارته للتنزّه في منطقة البُحيرات. كان أحيانا يُرافقني. لم نكن نتبادلُ ثلاث كلمات خلال الطّريق. إلهي، يا لها من راحة. الكلامُ هو الذي يصلُ ويشحن الخصومات. الكلام هو الذي يُنشئ العائلات. نجوتُ من كلّ هذا وأنا أكبر في السّرك: العائلة المُغلَقة المُكدّسة بعضها بوق بعض، ابتكار من الربّ لا من المُجتمع، ربّ لاعب وزّع الأدوار مرّة وإلى الأبد: أنت هنا، وأنت هناك، لن تتحرّكوا ولأنّ الحركة ضروريّة، فستكونون مصدَر معاناة أحدكم للآخر. لا، لا سبيل لإيجاد عائلة في فندق. لا حاجة لي بأب، أمّ، وزوج. حظيتُ بكلّ هذا بالقدر الكافي. أحتاج فقط، إلى هواء منعش على رقبتي، بين الرّقبة وبين ياقة القميص، أن ألطّخ عَيْنيَّ بأخضر الصّنوبر، الأخضر الدّاكن العنيف. أشعر أنّي أشبه تلك التي تحدّثت عنها منذ قليل، قبّرة فوق مرج. تتحوّل من الأرض إلى السّماء، لا واجب لها تجاه أحد، شادية خافقة بأجنحتها .

الذّئب هو أنا، نائما خلف القضبان. القبّرة هي أنا، في الهواء
الأزرق، هادئة، نابضة بالحياة.
بالأمس قفص، واليوم سماء.
أنا أُحرزُ تطوّرا.

تيتاتي تيتاتي، تاتاتي تاتاتي. ذاك ما يرتفع من قلبي إلى شفَتَيَّ عندما أنزل السُلّم، بحقيبة في كل يد. إنها النوتات الأولى من لحن الضّخم: «أبي المسيح كم هي مُستقرّة سعادتي.» تيتاتي تيتاتي، تاتاتي تاتاتي. سعادتي مُستقرّة حتّى لو لم يكن للمسيح علاقة بذلك. سعادتي مُستقرّة حتّى لو أُطبِقَت الأبواب وأُغلقَت الوجوه. اتّخذ رومان قراره بعد مرور ثلاثة سنوات. خرجتُ هذا المساء من بين ذراعَيْ العملاق، مثل كلّ مساء، وكان هذا المساءُ فجأة مُختلفا، باب الشقّة مُقفَل، كوّم رومان ثلاث حقائب وكيسَيْن في السُلّم، فتحتها جميعا، كان في داخلها ملابسي وكتبي، المُهمّ، مُرتّبين بعناية، بدت لي علامة تهذيب. كان في مقدوره أن يرمي بها كما اتّفق كومة واحدة في فوضى. ثلاث سنوات، هذا كثير. لا أدري، مَحلّه، إن كنتُ سأصبر.

ثلاث حقائب وكيسَيْن، وليس لديَّ سوى يديْن. ذهبتُ إلى العملاق، كان يمشي على أطراف أصابعه، كلّمتُه بهمس، من يدري، لا ينبغي استفزاز الشّيطان: للتّهذيب وحتّى للحكمة حدود، لا أتمنّى أن يظهر رومان فجأة في الطّابق، ويُفرغ غضبه في عازف التشيلو، عازفي. بعد فترة، رحتُ أسمَعُ الشّغف حسب سانت-

جون بصمت، وأنا أنظر من النّافذة مُشيحة بوجهي عن شجرة الزيزفون. كان العملاق، صموتا مثلي. عند نهاية الأسطوانة هدّأتُ من روعه: لن أبقى في بيته سوى أسبوع واحد، اثنان على أقصى تقدير، ما يكفي من الوقت لإيجاد بيت. الزّواجُ، إنّه أكثر ممّا تتطلّبه الحياة. اثنان، هذا مُبالغ فيه. كلّما تحدّثتُ كلّما تبدّد قلق العملاق. يغتاظُ كلّما قلتُ له إنّي سآخذ الضّخم معي. أدقّق: ليست الأسطوانات بالطّبع. سآخذ الفرح الذي تمنحه تلك الموسيقى. أستطيعُ سماعه في غياب الأسطوانات، يكفي أن أغمض عَيْنَيَّ وأن أتنفّس ببطء، ببطء شديد، كي يعود كلُّ شيء عبر الأثير، متدفّقا، مُموّجا: تيتاتي تيتاتي، تاتاتي تاتاتي.

أمر مُضحك. أمرٌ غيرُ مُضحك بالمرّة: لم أفكّر لحظة في الرّجوع إلى رومان، أن أطرق بابه من جديد. لعلّه العجز، لعلّه العفو، هكذا هي الأشياء: ما يُمنحُ لي آخذه. ما يُسحَبُ منّي، لا حاجة لي به. حقا، أنا سهلة الفراق. أتساءل، لو أنّي، مكان شابّ، وقعتُ في حبّ فتاة لديها قلب، كيف أعبّر، جاف. قلب جافّ؟ لا، مع ذلك، أنا لا أقول ذلك. خفيف. هذا أفضل. لديَّ قلب خفيف. ليس هذا بالضّبط، صرتُ قريبة من الكلمة: قلبي تيتاتي تيتاتي .

أجد هذه الخفّة عند العملاق. قرّرتُ عدم رؤيته مُجدّدا، حدس ذلك. لا أذهب لأحد إلاّ هروبا من الآخر، والعكسُ صحيح. وبما أنّ أحدهما قد اختفى، فمن الصّواب أن يُمحى الآخر. في الواقع، أنا أشعر بالرّاحة. لا شيء حدث بلطف كما جرت كتابته خلال

السّنوات الثّلاث مثلما هو الحال بالنّسبة إلى هذا الهروب. يحوم العنف والحرن. استخدم الرّجلان مخزون ذكاءيهما كي لا تتمّ مواجهة بينهما. ما ننتظره من الشّيء مُرهق أكثر من الشّيء في حدّا ذاته. في النهاية بدأتُ أتمنّى لو أنّ اللّقاء قد تمّ، كي لا أتألّم بتخيّله. لِمَ قد يقول المرء أكثر. الصّحف مثل الكتب، مليئة بهذه القصص، هذا مُملّ. لا أؤمن بالله، أعتقد أنّ كلَّ ما يحدث لنا قد وُضع بين أيدينا من قِبَلِ الربّ الذي لا أومن به، أعتقد في كلّ شيء وفي نقيضه، ربّما هذا ما يعنيه التّفكير، لقد قُذفَ بنا في هذه الحياة الواحد فوق الآخر، أظنّ أنّ الفنّ الكبير هو فنّ المسافات، نحنُ نحترق من قريب، بعيدا نحنُ نتجمّد، يجب أن نتدرّب على إيجاد النّقطة الصّحيحة وأن نحافظ على المكوث فيها، لا نتعلّم ذلك إلاّ إذا دفعنا المقابل، كما هو حال كلّ معرفة، إنّه درس الطّفولة الأوّل، هكذا تعلّمتُ قراءة الوقت في ساعة حائطيّة، كان عمري ثلاثة أعوام، ثلاثة أعوام ونصف، خلال شهر، كلّ يوم، كانت أمّي تختفي ساعَتَيْن متتاليتَيْن، لم أعرف أبدا إلى أين كانت تذهب، لم يُجبني أبي عن هذا السّؤال، كانت سحنته غريبة آنذاك، كنتُ خائفة لأنّي لا أفهم شيئا، ماذا لو لم تعُد، أراني أبي ساعة، قال لي: انظري حين تكون الرّيشة الصّغيرة هنا والكبيرة هناك، فستأتي أمّك ضاحكة، كالعادة، هكذا تعلّمتُ قراءة الوقت وهكذا تعلّمتُ البقيّة، مع الفقد والألم الذي في داخلي، أكره الألم، لن أحبّه لكن يجب أن أعترف أنّه مُدرّس بارع، نُقضّي حياتنا في قتل من نقترب منهم حتّى يأتي دورنا يوما، السجيّة هي أن نتخطّى كلَّ هذا الموت مُحافظين على مرحنا ورقّتنا وذكائنا، السجيّة

هي أن نكون أحياء حتّى ونحنُ ميّتون، مثل عصفور ساخر في غابة مُتفحّمة، إلهي، الذي هو لا أحد، امنحني كلَّ يوم أغنيتي اليوميّة، إلهي المُهرّج، أحيّيك، أنا لا أفكّر فيكَ أبدا، أفكّر في البقيّة، هذا في حدّ ذاته عمل كثير، آمين.

اكتشفتُ شقّة جذّابة في غضون أسبوع، وضعتُ فيها حقائبي وأكياسي، مررتُ يوما، فلم أجدها فارغة، كانت مليئة برومان، بالعملاق وبي، جاءت الصّورُ أكيدة صافية، وأخرى مُمَزِّقة، من المُستحيل، إذًا، أن أدخل غرفة فارغة، تسبقنا روحنا دائما، تناولتُ حقائبي، واتّصلتُ بأمّي، سأمنحُ نفسي راحة بشهر، سأنام خلاله في غرفة طفولتي، حتّى بمنظر مُطلّ على القبور، سينفعني ذلك. غادرتُ العاصمة. عبر القطارُ رمادَ الضّاحية، مزّق قماشَ الأرض المنتهية. في الطّرف الآخر محطّة صغيرة. وبعيدا، هناك منزل. هو أيضا ليس خاليا. أعرف ما ينتظرني في داخله: لا شيء من السّلام والفرح البسيط، لحن رخيص، تيتاتي تيتاتي، تاتاتي تاتاتي.

«ريبيكا، انزعي فستانكِ، لم تعودي عروسا». تخرج هذه الجملة من الإنجيل، أو من التلمود. أذكُر أنّي قرأتُها في تصدير لكتاب علمي. نسيتُ كلَّ ما في الكتاب ما عدا هذه الجملة. عادت اليوم إلى مُخيّلتي، كدوريٍّ يقفز بجانبي، يرافقني إلى غاية باب والِدَيَّ. «ريبيكا، انزعي فستانكِ، لم تعودي عروسا.» جاء بائع الورود ليستقبلني عند مدخل الممرّ، وفي يده اسفنجة. كان بصدد غسل الأواني. كان وحيدا. ذهبت أمّي إلى المحكمة، ستعود عند المساء: تابع التّوأمان حياة المرآة، اجتاز الأوّل للتوّ امتحان الحصول على رخصة السّياقة – التي كانت في حوزته – مُستعيرا هويّة أخيه الذي كان ضعيفا في ركن السيّارة. كُشِفَت الخدعة، لكنّه لن يتعرّض إلى عقوبة كبيرة، خطيّة ثقيلة على أقصى تقدير. وأبي؟ والِدُك في القبور، قال بائع الورود، أين تريدين أن يكون؟ دخلتُ غرفتي، رميتُ أغراضي على السّرير، نزلتُ إلى المطبخ، التهمتُ شريحة جمبون، والفطائر بالسّردين، ما زلتُ جائعة، سخّنتُ الماء من أجل المُعَجّنات، علّمتني أمّي طبخها حتى تتصلّب، علينا من حين إلى آخر غمس الشّوكة في الآنية، الإمساك بواحدة، ورميها على الجدار،

إن التصقت فعلينا إيقاف الطّهو فورا. دفع أبي الباب وابتعد قليلا قبل أن يتلقّى حزمة مُعجّنات مباشرة على وجهه. اتّخذ سحنة الأيّام الرّديئة. ها قد عُدنا عشرة سنين إلى الوراء: حصلتُ على أعداد سيّئة في مدرسة الزّواج، البروفيسور رومان غيرُ راضٍ عنّي، ثمّ ماذا، غير سعيد بالمرّة، يتصوّر أنّه كان في مقدوري بذل جهد أكبر لكنّي غير متأكّدة، أنا جيّدة في بقيّة المواد، في الضّحك، والخيال، والنّوم، لكن في الزّواج، لا، لا يمكن أن ينبغ المرء في كلّ شيء. يقف أبي كالعادة، في صفّ الأساتذة. ثمّة شيء ما مُشترك في تلك الوجوه الثّلاثة، صورة الأب، والمُدرّس والزّوج. إلهي، احفَظنا من الاختبارات ومن الذين يجعلوننا نخوضها. قلتُ لأبي إنّي سأروي له بالتّفصيل عن ذاك المساء، لدى عودة أمّي. تبادل مع بائع الورود نظرات ارتياب. عاد الأوّل إلى زهوره، والثاني إلى أمواته. أمضيتُ فترة ما بعد الظّهيرة وحدي في البيت. كم مرّ من الوقت دون أن أستمتع فيه بالبقاء وحدي؟ لبثتُ مستلقية على سريري، كانت ساعات حُلوة كبداية الحبّ. مساءً، أمام أمّي الضّاحكة وأبي المُزمجر، أعلنتُ نهاية زواجي. لم أقل كلمة واحدة عن العملاق، ليس من شأنهم: لديهم بائع الورود. ريبيكا، انزعي فستان العروس، ريبيكا أفرغي ثلاث كؤوس من النّبيذ الأبيض، ريبيكا تريد الخلود إلى الرّاحة بضع أسابيع: زواج، طلاق، إنّه مقدار كبير من العمل، تعب كثير.

حطّ رومان رحالَه في اليوم الموالي. كنتُ في السّوق مع أمّي. بحث عنّي بين القبور، وجد أبي، دخل معه في حوار حول خفّة النّساء. إنّه فتى بغيض، أسرّ لي والدي لاحقا. دخّن علبة سجائر في

انتظارك، كان يرمي الأعقاب في القبور التي أحفرها، ضايقتني صفاقته، أن نكون ضحيّة حزن متعلّق بالحبّ، لا يعني أن نسمح لأنفسنا بكلّ شيء. في الأثناء، في ساحة السّوق، قدّمت لي أمّي السّعيدة بعودتي، صديقاتها. كانت أمّي لتسعد بكلّ ما يقوم به أبناؤها إن دخلوا أو خرجوا أو وقفوا أمام المحاكم أو البلديّة. كانت الأكثر تفهّما لكوننا لسنا ملائكة. لكن يظلّ هذا سرّا بينها وبين نفسها. لا مجالَ لأحد - حتّى لو كان زوجها - أن يتدخّل في سلوكنا. وحدها تملك الحقّ في انتقادنا. إنّه امتياز الأمّ، وأمّي قد حرّمت على نفسها استخدام امتيازها هذا إلى الأبد. من يدري: لعلّه الحبّ الوحيد الذي يستحقّ. لكن مرّ زمن، اكتفيتُ فيه بالتساؤل دو ن أن أحظى بأجوبة عن الحبّ. «مدّة طويلة»، اسمٌ رائع لعاشقة. حاليّا، التي تقف أمام رومان ليست عاشقة. وليست حتّى السيّدة كيرڤوك. ثمّة ريبيكا، دون فستان زفاف، عادت إلى تنانيرها القصيرة من عهد الطّفولة وهي لا تفهم شيئا ممّا يُغنّى لها، ليس هناك، دون شكّ، ما يمكن فهمه من مزيج الشّكوى والتّهديد هذا. والِدَايَ في الأسفل، ولابدّ أنّهما يسمعان حديثنا. صحبتُ رومان إلى غرفتي، النّوافذ مفتوحة، لابدّ أنّ الأموات أيضا قد سمعوا.

ساعة، ساعتان، من الإنصات إلى اللّحن نفسه، ما من باخ، بل «بيزات–Bizet »، كارمن: إن كنتِ لا تُحبّينني فأنا أحبّكِ، وإن كنتُ أحبّك، فاحذري جانبي. سأسرع، سأختزل ما قاله رومان الكاتب لغيمة–الفُحش. غيمة، إنّه الاسم الذي أطلقه عليَّ خلال الأشهر الأولى، وهي ذكرياتي العذبة الوحيدة: لا أحد سيدعوني بهذا

الاسم. حجج رومان، أطروحته، نقطة قوّته، خلاصته: «غيمة، لا أستطيعُ العيش من دونك.» غيمة، السيّدة كيرف-وك وريبيكا تآلفْنَ فورا وكان الضّحك هو الطريقة لتآلفهم: «لكن رومان، روماني الطيّب، روماني الجميل، ما صلةُ هذا بالحبّ؟ لا يمكن أن نستمرّ مع أحد بذريعة أنّه قد يضيع من دونك، إلاّ إذا كان طفلا وأن أكون أمّه. لستُ أمّك، رومان، ولا أريد أن أكون زوجتك. أنا سعيدة بما عشناه معا، وإن كنتُ أشكّ في صدق هذه الكلمة: معا. أنا سعيدة وسأرحل. انظر إليهم - أشرتُ إلى القبور -، لقد انتهوا من البحث. لقد وجدوا. أنا لم أجد بعد، رومان، ولا أرى أحدا قد أعجز عن العيش من دونه«.

نزل السُلّم، مرّ أمام والِدَيَّ دون أن يُلقي عليهما نظرة، خرج إلى الشّارع، ركب سيّارته. أنا في مدخل البيت، لا أنتظر سوى أن تشتغل السيّارة وتنطلق، عدتُ إلى الصّالون. إنّه واحد من بين الإشراقات التي منحني إيّاها ذئبي: الذين نراقبهم، يمضون نحو موتهم، أي أنهم ينأون حتّى وإن بدا أنّهم يقتربون، كلّ شيء يمضي، منذ البداية يمضي. فكرة بسيطة. إنّها لا تحول دون الحبّ. على العكس، إنّها تجعلني أغنّي في هذه اللّحظة.

حسنا، ابنتي، قالت أمّي، لستِ وديعة. رمقتُها مُبتسمة: حسنا، أمّي، من تولّى تربيتي؟ ورحتُ لآخذ حمّاما. حمّاما برغوة سميكة.

أنا مَيّتة. مِتُّ يوميْن. استيقظتُ باكرا، أخذتُ حمّاما، تعطّرتُ واخترتُ فستانا صيفيّا، رغم أنّنا كنّا في الشّتاء. لم يكن الجوّ باردا. ثمّ إنّها رغبتي، رغبة في ارتداء قماش خفيف، مُلَوَّن. لا شيء أكثر حزنا من أن يرتدي الإنسانُ دائما «كما ينبغي». لا شيء أكثر إحباطا من هؤلاء الذين لا يقولون أشياء مغايرة أو يقومون بأعمال «مُختلفة». كان والِدا رومان هكذا، تلميذَيْن نجيبَيْن، يسردان حياتهما مثل درس يحفظونه عن ظهر قلب، دون ارتكاب خطأٍ بسيط. لا أعرف ما الأبشع، عدم تصالح الإنسان مع العالم أم تكيّفه مع كلّ شيء، المجانين أم الأسوياء كما يُقال. أعرف أنّي أخشى المجانين على نحو أقل، أعتقد أنّهم أقلّ خطرا. لبستُ، إذًا، في خميس الشّتاء ذاك كما لو أنّه يوم أحد صيفي. كان لديَّ بعض الحاجيات لأشتريها. بطّاريّات للضّخم، جرائد وفواكه. أجوع في عمق اللّيل على نحو مُستمرّ ولا أجرؤ على دخول مطبخ النّزل كي أعدّ لنفسي شيئا. كنتُ أفكّر في شراء الموز. الرّائع في الموز ليس طعمه، السّمج قليلا، بل سهولة سلخ جلدِه. أفضّل البرتقال لكن لا أجد الشّجاعة لتقشيره: تناول سكّين، وإحداث أخاديد على قشرته، نزعها أرباعا

لأجد نفسي بيَدَيْن مُلوَّثَتَيْن، قطع صغيرة من القشور البيضاء، محصورة تحت أظفاري. المعاناة أقلّ مع الموز. إنّه تفصيل، حكاية البرتقال، لا شيء سوى تفصيل صغير: تدخل حياتي أشياء عديدة، أو تظلّ عند العتبة، لسبب بسيط هو الكسل. أنا أسوأ من أمّي. فاكهة، بطّاريّات، جرائد وهدايا، سنحتفل خلال يومَيْن، بعيد ميلاد التّوأمَيْن: لديَّ أسبابي للخروج من الفندق، والفستان الذي يتماشى مع الأسباب. مشيتُ خطوات فوق السجّاد الأحمر المفروش في الممرّ، عُدتُ مُسرعة إلى غرفتي، أغلقتُ الباب بالمفتاح، تمدّدتُ على الفراش، لم أستيقظ إلاّ بعد يومَيْن كاملَيْن. هذا ما أسمّيه الموت، يعتريني هذا أحيانا. لا نظر، لا كلام، لا شيء. يومان، ليسا أمرا يُذكَر. كان في وسعي قضاء الإقامة في النّزل على هذا النّحو. حدّت الكتابة من هذا الخدر دون شكّ، مُحافظة على نسبة معقولة منه.

بعد موتي نهضتُ أكثر شبابا. استأنفتُ مرور الوقت من حيثُ تركتُه. اقتنيت حاجيّاتي، ورجعتُ إلى دار المُسنّين، لرؤية «جدّتي». كانت هناك حفلة في الصّالة الكبيرة، عيد ميلاد. موسيقى صاخبة، كؤوس بلاستيكيّة مليئة بالرّغوة. نساءٌ يرقصن فيما بينهنّ. أغلبهنّ ظللن في أماكنهم يتفرّجن. كنّ يحتفلن بعجوز عمرها خمسة وتسعون عاما. كانت الممرّضات من حولها يُحدّثنها بصوت مُرتفع. غمست البسكويت في كأسها، سقط نصفُه على فستانها الزّهري البنفسجي. أخاف الشّيخوخة. أتساءل إن كان الرّجال يخشوْن ذلك أيضا. الرّجالُ محصّنون بأشياء كثيرة: أمّهاتهم ونساءهم. لم تكن سيّدتي العجوز في الصّالة. أعطتني ممرّضة رقم غرفتها وقالت لي،

أنتِ من العائلة، أجبتُ نعم، يجب أن تعلمي، إذًا، أنّ وضعها سيّء، لقد فقدت صوابها، سنرى بعد أسبوع أو اثنَيْن، نخشى أن نؤويَها في مؤسّسة مُتخصّصة.

طرقتُ بابها عديد المرّات. ما من جواب. دخلتُ، كانت جالسة على كنبة بمحاذاة النّافذة، كان رأسها بين يديْها المُبَلَّلَتيْن: كانت تبكي. كانت تبكي في صمت. كانت الدّموع تتساقط من عيْنَيْها على راحَتيها بانتظام وهدوء. جثوْتُ على ركبتيّ أمامها، وضعتُ يديّ على يديْها. عرفتني. لم أسأل عن سبب الدّموع. ما من سبب، أو ربّما منها الكثير. استعدتُ وجه رومان ساعة الفراق. هنا، الأمر مُختلف في غرفة المُسنّين هذه، الضيّقة كغرفة طالبة. ملح وماء من نوع آخر. كان رومان يبكي من قلبه مثل طفل كُسرت دميته. كانت دموعه تطالب بشيء ما. لم تكن العجوز تطلب شيئا، لم تكن دموعها تعادل الصّراخ. لم تكن تعني شيئا، مثل النّبيذ أو الدّم. أخطأتُ: لم تعرفني. كنتُ مألوفة لديها، لكن لم تكن تراني أنا. كانت تدعوني جيريمين، عدتِ، جيريمين، أخيرا تركتِ خبزَكِ في عمق السّماء، لم تكوني ملاكا لطيفا كفاية، جيريمين، وأنتِ تضربين على الطّبل طوال الوقت، كنت تدمّرين أُذُنَيَّ، ثمّ كان عليك الاعتناء بي على نحو أفضل، دائما، لكنّي سعيدة، عثرتُ على ملاكي الحارس، شاهدتُكِ البارحة في التلفزيون، كنتِ تلعبين لعبة المُربّعات في السّاحة الحمراء أمام الكرملين وحلّقتِ فوق قبّة صفراء بالكامل، حدّثيني عن موسكو، جيريمين، حدّثيني عن ذاك البلد، يبدو أنّه جميل جدّا.

رويتُ لها أشياء كثيرة عن روسيا التي لم أذهب إليها أبدا. الأشجار، الشّوارع، المنازل، الوجوه، السّماء، الأشجار مرّة أخرى.

عدتُ إلى الفندق راقصة تقريبا، خفيفة: إنّها المرّة الأولى التي يكون فيها لحياتي مشروع. كان ذلك مُضحكا، بسيطا، سهل الإنجاز: أسبوع أو اثنَان، الوقت الكافي لأنتهي من كتاباتي، لأودّع ظلالي.

عمري سبعة وعشرون سنة، وما زالَ والِدَاي يتخاصمان في شأني كأنّي في السّابعة. أسمعُ أبي في الحديقة يُلقّن أمّي الدّروس. يُذكّرها كم هي الحياة قاسية، وأنّهما غير قادِرَيْن على مواصلة إطعام حمقاء في السّابعة والعشرين تُمضي أيّامها في قراءة الرّوايات حبيسة غرفة. حين يقول أبي مثل هذا الكلام وتسكت أمّي، فهذا يعني أنّها تكتم ضحكة مُجلجلة. وها أنّ صاروخ الضّحك ينطلق من حنجرتها في منتصف حديث أبي عن فضيلة العمل. مضت الآن ستّة أشهر وأنا في بيت أهلي، ستة أشهر لا يكفّ فيها هذا المشهد عن التعاود بمعدّل مرّة في الأسبوع. الأغلب، يوم السّبت. قد يدوم هذا فترة طويلة. أشعر أنّي تحت جناح أمّي. وأنّي في الدّفء. إنّها تقوم بعملها على نحو رائع. عمل الأمّهات هو حماية أبنائهم من مزاج الآباء الأسود. والآباء؟ عملهم، كما أظنّ، من الطّبيعة نفسها: حماية الأبناء من جنون الأمّهات المُفرط. بالنّسبة إليَّ، لا تسير الأمور إلاّ من جانب واحد، من جانب الأمّ. لماذا، لا أعرف. ربّما لأنّه لا وجود سوى لشخص كامل واحد بين الأزواج، أبدا ليسا الاثنيْن معا: الثاني يُطيع، مُتذمّرا أو مُبتسما، لكنّه يُطيع فحسب، مبتورا من أحد

أطراف قوّته. الزّواجُ أمر مرغوب، مثل جميع الأشياء المُستحيلة. ثمّ في العمق، لا يهمّ ما يكون: سيكون على أيّة حال كافيا لأكون سعيدة. لديَّ سرّ: الحياة تُحبّني. تأتي الحياة دائما للقائي عندما أكون على وشك نسيانها. ماذا أصنعُ بها؟

ألتهم الكتبَ المنتقاة حسب حجمها، ليس أقلّ من سبع أو ثمان مائة صفحة. الوقتُ الذي أمضيه في القراءة ليس وقتا. أتخطّى الحدود من صفحة إلى أخرى، أدخل بيوتا نائمة، الهاربة في داخلي هي التي تقرأ وما من شرطيّ يستطيع القبض عليها قبل أن تُتِمَّ الجُمَلَ الأخيرة، قبل أن أرفع رأسي فأجد السّماء وقد حالت إلى الأسود بعد أن كانت زرقاء. عمري سبع وعشرون لكنّ القرّاء لا عمر لهم. أمام الكتاب المفتوح ليس ثمّة سوى الطّفولة المسموح لها باللعب في الشّارع بعد العاشرة مساءً.

قضّيتُ ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ مع «آنا». آنا كارينين، 909 صفحة. هي والشاب ڤرونسكي يرقصان في لقائهما الأوّل تحت أنظار كيتي، المُغرَمَة بڤرونسكي، وأنا أراقبهم جميعا، العُشّاق أمام رغباتهم المجهولة وتلك التي تُدمّرها النّظرات. من خلال النافذة المواربة في قصر نيكيتين، مُمتزجا بصوت الأوركسترا، صوتُ أمّي تسألني ماذا أريد للعشاء، سلطة الجزر أم طاجِن الهندباء. أستطيعُ مواصلة حياتي على هذا النّحو، في هذه الغرفة وسط هذه المياه الممزوجة بالخيال والواقع. أعشق الظّلال في الكتب. لا أحد يُمكنه اقتلاعي من بين أذرعها.

لا أحد باستثناء ظلال أخرى، اثنا عشر، يدخلون المقبرة، يتّجهون إلى والدي، يمدّونه بورقة من البلديّة، ترخيصا لتصوير فِلمٍ بوليسي، مشهد جنائزيّ، عشرون ثانية من الصّور، ثلاثة أيّام من العمل. إنّها معارفي الأولى في السّينما، معارف تُسعدني: كثير من الوقت من أجل لا شيء تقريبا. تفاجأ أبي في البداية، ثمّ سُرَّ بالأمر، مجروحَ المشاعر. بعد حديث طويل مع والدي، طلب المُخرج من الممثّل أن يحفر القبر بدلا منه. لا فرصة لي غيره. حصلتُ على دور كومبارس. سأكون بين أولئك الذين سيتقدّمون من الحفرة ويُلقون في داخلها وردة صفراء. جنى بائع الورود مرابيح أسبوع كامل. أجهل كلَّ شيء عن القصّة. طلبوا منّا أن نبكي امرأة محبوبة في قريتها. أعيد المشهد ثلاث مرّات متتالية، في الرابعة تحطّم قلبي وابتلّت عينَيَّ. قلتُ خلال المرّة الأولى إنّ رومان هو الذي يرقد في التابوت، في الثانية، أبي. في المشهدَيْن الأخيرَيْن، بكيتُ أنا والجنديّ الشابّ.

بين اللّقطات، أتنقّل من أحد إلى آخر. لم أجرؤ على الاقتراب من المخرج. سمين قصير، كتب اسمي وعنواني ووعدني أن يفكّر في استدعائي من أجل تجسيد آخر.

مرّت ثلاثة أشهر، مكالمة، عليَّ أن ألتحق بفرقة في مرسيليا، فِلمٌ عن الأزياء، ربّما ستكون لي جملة أقولها، أتساءل ما هي: «نسيتَ قبّعَتَك سيّدي.» أكرّر الجملة طوال اللّيل، رتّبتُ حقائبي، سعيدة، قام الوقت بدورة كاملة: السّينما كالسّرك، السّعادة ذاتها في التنكّر،

الخطورة ذاتها في الألعاب.

حظّي وافر: هذا ما قاله لي الكومبارس الآخرون. صحيح أنّ الأشياء تجري بسرعة. مرسيليا، رووان، باريس، تتابعت عروض التّصوير، سرعان ما أصبحتُ لا أسعى وراءها، أكّدوا لي أنّه أمر نادر في هذا الميدان. لا أفهم ما يُقال لي، ربّما ذاك ما يُسمّى بالحظّ: شيء ما نحظى به دون أن نفهمه، ودون أن نعرف بأنّنا نملكه فعلا.

لا أزعم أنّي ممثّلة. أنا مؤدّية، يُشار إلى ذلك في وصولات الخلاص. الممثّلون داخل الحكاية. الكومبارس خارجها. يحومون حول الأحداث ولا يدخلونها أبدا. يتمثّل عملي في أن أكون ما يريدون أن أكون: إنجليزيّة في عطلة، سكرتيرة مُحامٍ، زبونة في محلّ. هذا ليس بالأمر المُعقَّد، الجميعُ قادرون على القيام بذلك: تتقدّمون في الضّوء، يرونكم قادمين فيما لستم أنتم من يتقدّم فعلا. راحة أكثر من كونه عملا. نعمة شاملة.

لديّ في حقيبتي دفتر عناوين من الجلد الأسود، الفاخر. في داخله، أناسٌ مشاهير وآخرون نكرات. أصدقاء فحسب. أنتمي إلى «العائلة السينمائيّة الكبيرة». في الصّور الجماعيّة، أنا الفتاة السّمراء القصيرة التي بإمكان أيّ أحد أن يُخمّن مكانها في الخلفيّة، وجهي نصف مُغطّى بالتي أمامي. قليلا ما أظهر لكنّ الأمر سيّان بالنّسبة إليَّ: أنا موجودة. مقبولة ومُرحّب بي.

الذين يُحبّوننا محلّ ريبة أكثر ممّن يكرهوننا. من الصّعب مقاومتهم، ولا أعرف أفضل من الأصدقاء فيما يتعلّق بدفعي إلى كعس ما أرغب فيه. عزيزتي، يجب أن تقبلي هذا الدّور، قلبي، من الضّروري أن تذهبي إلى هذا الموعد، عرضٌ كهذا، لا يُمكن رفضه.

لم أسمع إلى حدّ الآن سوى حدسي. أخيرا، أنا لا أسمّي هذا «حدسي»، منّي إليَّ أقول: «ملاكي». ملاكي متوحّد، طفلٌ ذئب، يتركني خرساء، هاربة، برّية، إنّها طريقته لحمايتي. ملاكي هو الذي يتبعني أثناء هروبي، وهو الذي يقرأ من على كتفي. هو الذي سحبني من بين ذراعَيْ رومان ومن ثمّ العملاق. وها أنا أفقده.

أتساءل أين هو، لماذا تركني أقوم بأيّ شيء. عزيزتي، كنزي، لا يجب رفض أيّ شيء، يجب تسلّق درجات السُلّم، واحدة تلو أخرى، عندما تصير ين في الأعلى، يمكنك دفعُ السُلّم بقدميْك، في انتظار ذلك تسلَّقي، واحدة تلو أخرى، لن ترقّي الآن على أيّة حال؟ لا لن أرقّ: سأبتلع. أبتلع العقود والوعود والإطراء. أتسلّق الدرجات، الوقتُ يمرّ، كلّ شيء يسير على أفضل وجه عدا أنّي لستُ في كلِّ شيء. شُلّت الأشياء في القلب أو في الرّأس. ينبغي أن يكون هذا هو مفعول النّجاح، كمزيج من الكحول والمُسكّنات. لنَسَعَ بعضَنا: نجاح صغير. تخطّيتُ للتوّ الحدود التي تفصل الكومبارس عن المُمثّل. بعد أربعة سنتات، دام أكبر دور لي ثلاث دقائق وسبعا وعشرين ثانية. لكن ليس ثمّة نجاح «صغير». أذكُر مجد رومان عندما صدر كتابه الأوّل، منشورا على حساب المؤلّف، لا وجود له في المكتبات: وُلِد للتوّ اسم كبير في الأدب. نحنُ حمير يُسعدها القليل من التّبن. نحنُ ظلالٌ تكنسها ريحٌ ضعيفة.

العالم مسطّح مثلَ الشاشة، أنتمي إلى الظّلال الصينيّة، لا أخالط سوى الأشباح. المُمثّلون أناسٌ يقبّلون بعضهم البعض كثيرا ويكرهون بعضهم أكثر. المُمثّلون هم أناسٌ مساكين مثلي ومثلك. إنّهم يبحثون دائما عن مرآة يطرحون عليها السّؤال نفسه، علما أنّهم لا يحتملون صراحتها: هل يُحبّونني كفاية، هل سيُحبّونني دائما؟ المُمثّلون هم زهور هشّة تنمو تحت شمس الكاميرا، وتنتشي لقراءة الجرائد. الصحفيّون، هم ملوك العالم الحقيقيّون، إذًا. دائما وسط حمّى عدم الانتهاء من العمل، أبدا لا يجدون الوقت لفعل شيء:

ملوك العالم يعيشون كالعبيد. الصحفيّون هم أناسٌ مثلي ومثلُك، كثيرو النّسيان والثّرثرة. تمرّ السّنوات، تقوم المرايا بدورها يتبعها المال. من تلك الحقبة، لا أذكُر سوى حكايتَيْن. أحتفظ منهما بأشياء نفيسة، احتفظتُ دائما بما يبعث على الابتسامة ويدفع إلى التفكير في آن واحد. ما تبقّى، لا أعرف كيف أتصرّف فيه. أرميه، أظنّ. الحنينُ ليس نقطة قوّتي.

بدأت الحكاية الأولى في أستوديو إذاعة حيثُ كنتُ مدعوّة مع مُخرج. كان الصحفيّ رجلا قصيرا ذا عيْنَيْن مُستديرَتَيْن، كان يقفز في كرسيّه كلّما أراد التأكيد على فكرة. كان كالضّفدع. لخّص بسخرية فِلْمَ المُخرج، ومن مستوى إلى آخر، راحَ يُشرّحُه. لكن، سيّدي، سيّدي العزيز، كيف يكون المرء مُثيرا للغثيان إلى هذا الحدّ، قليل الموهبة إلى هذا الحدّ، شريطُك بغيض إلى درجة أنّه أصبح رائعا، حالة أكاديميّة حقيقيّة. وها هو يقفز في كُرسيّه، مُلطّخا نفسَه بإلمامه المعرفي، مُستشهدا، طويلا، بكبار المنظّرين في السيّنما. قبالته، كان المُخرج يضحك فحسب. في آخر البرنامج، دعانا الصحفيّ، بلطف مفاجئ، لتناول الغداء. تردّد المخرج لحظة، ثمّ قبِلَ. قبل مغادرة الأستوديو، قام الصحفيّ بدورة كاملة حول الطّاولة الفارغة بصورة لا تدع مجالا للشكّ، لفّ حولها أربع مرّات، أحصيتُها، ضاربا الطّاولة بكفّ يده مُكرّرا دون توقّف، وبصوت خفيض: حسنا، لم أنسَ مفاتيحي، لم أترك شيئا، حسنا، حسنا، حسنا. عندا نهاية الغداء، في المطعم، السّرك نفسه، القفز ذاته حول الطّاولة المليئة بالتّضاريس، رفعت يده كلّ طبق بهوس، خشية أن يكون قد تسلّل

تحتها شيء ما، سلسلة التمتمات ذاتُها: لا أتركُ شيئا، لنرى، مفاتيحي في جيبي، لم أنسَ شيئا، حسنا، حسنا، حسنا، حسنا. فهمتُ في ذلك اليوم من أين يأتي رضا بعضُ الأشخاص وأيَّ بؤس يُخفون، أيَّ ارتباك يُبدون لو تاه منهم شيء وسط العالم. لاحقا، التقيْتُ بعض العظماء في هذا المجال، سمّيتُهم في رأسي: حُرّاسَ المفاتيح. أتعامل ببرود مع كلامهم مهما كان لامعا. أعلم ما يقبعُ تحته وأنها لا تكتسي أهمّية سوى الهواء الذي ينفخ خدود الضّفادع المُتخوّفة.

جرت الحكاية الثانية في مكتب مُنتج. كاتب سيناريو شابّ مزّق صُحفا وهو يصرخ. خرج فلْمه لكنّ الصّحافة لم تتحدّث عنه، كان واثقا من وجود مؤامرة، بل كان لديْه الدّليل. مُبتَسِما، فتح المنتج خزانة، أخرج قارورة ويسكي وكأسَيْن. انتظرت، حتّى يتدخّل، قبل أن تؤول الصّحف إلى مِزق صغيرة، إلى غبار: لكن، صديقي، أنت في الطّريق الخاطئ، لا أحد يتحامَلُ عليك، كي يتحامل عليك أحدهم، يجب أوّلا أن ينتبهوا إليك، وفي هذا العالم، لا أتحدّث عن الوسط السينمائي فحسب، هاه، أتحدّث عن العالم بأسره، هل تسمعني عزيزي، العالم بأسره، في هذا العالم لا أحد ينتبه إلى أحد، لستَ موضوعَ اضطهاد بالمرّة، توقّف عن الهذيان، اللاّمبالاة والكسل هما مؤكّدان أكثر من سوء النيّة، صحيح أنّ الجميع زاهدون في الفِلم، لكن أرجوك، لا تصنع منها مسألة شخصيّة، أعيدُها على مسامعك، ليس ثمّة مؤامرة، أبدا، ليس هناك سوى هذا: لامبالاة طبيعيّة، مُشتركة، عميقة. خمول طبيعي، مُشترك، عميق. إن كنتَ ضحيّة، فهذا يعني أنّنا جميعا ضحايا، بقدر ما نحن

مُذنبون. اعتنِ بأعصابك، صديقي، انتقل إلى فِلمِكَ الثاني دون أن تكترث لأمر الصّحافة، والجمهور والمنتجين، لن يكون لك من عدوّ غير هذيْن، لدينا جميعا العدوّ نفسه وإن كان قويّا فلأنّنا نُساعده على ذلك: لامبالاة طبيعيّة، مُشتركة، عميقة. كسلٌ طبيعي، مُشترك، عميق.

كنتُ متأكّدة من أنّ ملاكي سيعود، وأين يُمكن أن أصادفه إن لم يكن في مطار؟ عرضوا عليَّ دورا حقيقيّا هذه المرّة، سأصعد درجات عديدة من السُلّم في وثبة واحدة، سيجري التّصوير في كندا، وقبل الانطلاق بقليل، ألمّ بي صُداع رهيب، سمّرني مكاني. إنّه ملاكي يتجوّل وسط رأسي، إنّه يحتلّ مكانه، مكانه الحقيقي في ثقب أذني: لا. لا، لا ولا. ما من كندا، لا أفلام ولا أشباح. تتركين أمتعتك وترحلين إلى «جورا»، لماذا إلى جورا؟ لا تجادلي، قال لي ملاكي، لن تستأنفي الجدال، تذهبين إلى جورا، تعثرين على فندق وتكتبين كلّ شيء منذ البداية، السِّرك والمعهد والمقبرة، تضعين لي كلَّ شيء أسود على أبيض. ماذا بعد؟ كيف، ماذا بعد؟ أنسيتِ معادلتكِ، كلمة السرّ، تعويذتكِ؟

لا، لم أنسَ: بعد ذلك، سنرى.

نزلتُ إلى المطبخ وطلبتُ من المالك أن يُجهّز لي الفطور. ضحك: تعلمين أنّه موعد العشاء الآن؟ نظرتُ إلى ساعتي. السّادسة مساءً، نِمتُ ثماني عشر ساعة متواصلة دون أن أنتبه.

إن كان لابدّ أن أرسم ملاكي، فسأمنحه شعرا أحمر، أجنحة بيضاء مُجعّدة قليلا، وخصوصا، سأُظهره بصدد القيام بشغله الأساسي: التّثاؤب. مُهمّة ملاكي، هي أن ينتزعني من بقيّة العالم (ومن نفسي) مانحا إيّاي رغبة مهولة في النّوم. أحظى بحياة جديدة، دائما، من خلال النّوم: شيء ما يقترب، واقتراب هذا الشّيء بدأ يُنهكني. أنا كمحارب سيخوض معاركه قبل خوضها، يعرف سأمها قبل أن تقع. ثمّ، بعد الرّاحة، يبدو لي كلُّ شيء بسيطا. عندما تبدأ المعركة فعلاً فإنّها تُصبح لعبة أطفال.

التّعب والبطء والنّعاس كانوا دائما من بين أصدقائي. لطالما تطلّبت منّي حركة صغيرة جهدا كبيرا، مُعذّبا، كما لو أنّ عليَّ أن أرفع العالم بأسره وأن أولَدَ في كلّ مرة كي أنجزه. أعرف أنّ الرُضَّع يقضون كامل أوقاتهم في النّوم. إنّهم يقومون بعمل مُرهق جدّا:

يرضعون قطرة واقع، قطرة واحدة فقط، يرضعونها بكامل أبدانهم المُرتعشة الورديّة، يلتهمونها بعيونهم الصّغيرة المُستديرة، يلعقونها بألسنتهم الصّغيرة كألسنة القطط، قطرة واقع، لا شيء، مجرّد شكّ، دمعة واقع تسقط فوق أرواحهم البيضاء مثل زيت على النّار، وسرعان ما يُنهَكون، مُكَبّلين، مُضطرّين للتوقّف عن كلّ شيء، تعليق كلّ شيء، والدّخول في نوم يدوم ساعات. يكبر الرُضَّع بالنّوم. رويدا، رويدا، تطول قاماتهم، ويحصلون على الوزن والقوّة، تتّسع الأذنان، تصبح الشّفتان أقلّ ارتعاشا وتتعقّل العيون، متفحّصين ما حولهم بهدوء. ملاكي مُحقّ: كبرتُ وأنا في طريقي إلى جورا كي لا أصنع شيئا. تمثّل الكتابة جزءًا من هذا النّعاس.

أنظر إلى هذا المخطوط الذي على الطّاولة وأفكّر في أنّي كتبتُه كي أمنح نفسي الوقت لأقرّر، كي أمنح للقرار الفرصة كي يستشري في داخلي. لعلّنا لا نقوم بشيء لذاته أبدا، بل لنمنح أنفسنا الوقت للانتقال إلى آخر، وحده يُشبهنا. يبدو لي ما أستعدّ للقيام به كثيرا. نعم، لقد صدق ملاكي: أصبحتُ فتاة كبيرة، كبُرتُ كثيرا في جورا. لم يكن ذلك ممكنا من قبل. قبل هذا، كان هناك دائما أحدٌ ما، الوالِدان، الزّوج، الأصدقاء. لا يسعنا أن نكبر مع الآخرين. ليس في مقدورنا أن نكبر إلاّ إذا هربنا من هذا الحبّ الذي يحملونه تجاهنا والذي يحسبون أنّه كافٍ لمعرفتنا، لن نكبر إلاّ حين نقوم بأشياء لا ندين لهم بتقرير عنها، ثمّ إنّهم لن يفهموا شيئا حتّى لو قمنا بالتّقرير لأنّه سيكون قد أُنجِزَ بقِسمٍ خفيّ من ذواتنا، بجزءٍ يصعب الإمساك به، لا يلفُّه معطف الحب الذي يُلقونه على أكتافنا. هذا الجزء هو

جزء الملاك - أو الذّئب. لستُ واثقة من إيماني بالملائكة. الذّئاب موجودة. بل إنّها موجودة مرّتيْن، في الغابة، وفي الأساطير التي تُشبه غابة من كلمات. الملائكة، لا أدري. صادفتها في كتب التّلوين. تبدو كأولاد صغار يرتدون قمصان النّوم. أعرف أنّها موجودة في قصص الإنجيل. هذا إذا كانت موجودة فعلا، لا يجدر بالإنجيل وبكتب التّلوين سوى أن تكون إقامات ثانويّة. «جدّتي»، لا تشكّ لحظة في وجود الملائكة: كلّما دفعتُ باب غرفتها، كانت ترى واحدا منها. آه جيريمين، عدتِ لرؤيتي، صرتِ تأتين كلّ يوم، هذا جيّد.

أخبرتني الممرّضة بنقل السيّدة المُسنّة إلى مستشفى الأمراض العقليّة، الأسبوع المُقبل: أعلم، كم هذا صعب، لكن ليس في مقدورنا إبقاؤها هنا، إنّها تبكي في النّهار، وتصرخ في اللّيل، اشتكى جميعُ الجيران. لم أقل شيئا. فكّرتُ فقط في أنّ الكلمة المناسبة ستكون مُضحكة، التّعبير ذاتُه عن الناس كما عن النقود. فكّرتُ أيضا في أنّ العجوز لم تكن تبكي معي، بل لقد كانت تميل إلى الضّحك، كانت تجد ملاكها طريفا بحكاياته عن الذّئب والعملاق والمُهرّج: دأبتُ منذ أيّام على حمل المخطوط معي إلى دار المُسنّين، وأن أقرأ لها. لم تضايقني وجهة نظر الممرّضة: اتّخذتُ قراري وبدأتُ فعلا بترتيب التّفاصيل. المالُ أوّلا. دخلتُ إلى البنك في سان-كلود. سحبتُ مُدّخراتي كلّها. دعا الموظّف رئيسه ليُقنعني بعدم تحويل المبلغ كلّه إلى سيولة: لصالِحك، آنستي، ينبغي أن تتركي قيمة مُعيّنة، لأنّ لدينا تدابير جديدة ممتازة. قالت الآنسة لا، لا، لا. أصرّ السيّد. ذكّرتُه ببداية حكاية لافونتين، حيثُ يذكر أنّ النّملة ليست مُقرضة جيّدة

وأنّه عيبُها الوحيد: جملة رهيبة عن النّمل، ألا ترى معي، سيّدي موظّف البنك؟ صرّار، أنا صرّار وسأظلّ. ندّت عنه ضحكة صفراء. بعد ذلك يأتي دور السيّارة. أتممتُ الأمر في خمس دقائق. حدثني البائع عن قدراتها وقوّتها ورفاهيّتها. قاطعتُه: كلّ ما أريدُه هو آلة راديو-مُسجّل من طراز رفيع، وأربع عجلات حوله .

لم تنسَني السيّدة العجوز طوال اليوم. كانت تعرفني أحيانا. بالأمس، لم تدعُني جيريمين. بكت من جديد، آسفةً لأنّها هنا، آسفةً لأنّها هي ذاتها، قلت في سرّي إنّ الجنون يحلّ محلَّ الدّموع التي لا نعرف كيف نذرفها. أخبرتُها بمشروعي: سآتي لأخذها بعد يومَيْن، سنرحل بالسيّارة دون أن نُخبر أحدا. هي من سيُقرّر الطّريق. وسأتكفّل بالبقيّة، حجز النّزل، البحث في الدّليل، تحديد الأشياء التي سنراها. رمقتني باندهاش، لم تقل شيئا لدقائق، ظننتُ أنّها سترفض، ثمّ سألتني، وهي تشخر، بصوت فتاة صغيرة: إيطاليا، ممكن؟ نعم، ممكن. وهولندا؟ نعم، ممكن أيضا. ذكرت أسماء بلدان أخرى. كلّ شيء ممكن.

مررتُ لأخذها في اليوم الموالي. سنبدأ بإيطاليا. لا، بل هولندا، صرختْ ونحنُ نستعدّ للخروج من الغرفة. وانفجرت ضاحكة، ضحكا خفيفا، بلّوريّا. حملتُ معي ضحكها إلى النّزل. فهمتُ للتوّ لماذا جئتُ إلى هذا الرّكن في جورا. يجب القيام بالأشياء كي نفهم بعد ذلك، بعد ذلك فحسب، لماذا قمنا بها.

نامت مُسنَدَة الرّأس إلى كتفي الأيمن. أسيرُ بهدوء، ستّين، سبعين في السّاعة، كي لا أفوّت شيئا من المناظر. أمامي، لا توليب ولا طواحين. فقط منطقة تجاريّة قريبة من ليموج. سيّان: الجمال كامن في كلّ مكان، ليس فقط في بُصيلات التوليب أو في أجنحة الطّواحين. الجمالُ ضاغط على كتفي الأيمن، إنّه في الابتسامة الطّافية على وجه مُخدّد. لم تُغادر الابتسامة وجه السيّدة العجوز منذ الصّباح الذي أخذتُها فيه، عندما لاحظت أنّ تغيير البرنامج يلائمني جدّا: آه، جيريمين، جيريمين، لم يغمَض لي جفن طوال اللّيل، لشدّة الإثارة التي انتابتني بسبب الرّحلة، قولي لي، غيّرتُ رأيي، هولندا تنتظر، البلدان تنتظر عكس النّاس، إنّها لا تختفي من يوم إلى آخر، إنّها لا تتبخّر، سنذهب إليها لاحقا، ثمّ أريد أن أخبرك برغبتي، جيريمين، لستُ متعوّدة على قولها، اعتدتُ على الطّاعة فحسب، سأروي لكِ، لكن معك تتشابه الأمور. مع ملاكها كانت تشعر بأنّها مع نفسها، هي معه ووحدها في آن، حسنا، هكذا أرى الأشياء. جيريمين، اسمعي عزيزتي، سنؤجّل هولندا وإيطاليا، وسنظلّ في فرنسا، فكّرتُ في قصّتك، أريد أن تأخذيني إلى سركِكِ،

أريد رؤية البهلوانيّة، مُروّض الأسود، المُهرّج والأسود، لا أدري كم أمامي من الوقت كي أعيش، لستُ من أولئك الذين يهذون بالزّمن الجميل كي لا يسمعوا شيئا عن موتهم، أنا أتوقّع كلَّ شيء منذ اللّحظة التي أستيقظ فيها، الزّمن الجميل والموت، تفهمين، جيريمين، الجُبنَ والحلوى، أعرف جيّدا أنّك لا تعلمين شيئا عن السّرك، ستجدينه، ثمّ لابدّ أنّ لديك تأثيرا وهيبة هناك، أرجو أن تطلبي منهم فسحَ حيّز لي، يُمكنني النّوم في مُكعّب قماش ولستُ مُكلفة في طعامي، أرغب في رؤية الفِيَلَة بدلا من التوليب، أريد أن أنهي حياتي في منزل متنقّل مع الأسود في الغرفة المجاورة، قولي لي ملاكي، هذا ليس صعبا، هل طلبتُ القمر؟

لا هذا ليس القمر. القمر تقريبا: هاتفتُ أمّي، بحثتُ في الدّليل المهني، لا أثر للسّرك. أذكُر جولته في البلاد، لم تكن تتغيّر، التّرتيب نفسه، كدوران عقارب السّاعة: منتصف النّهار باريس، منتصف النهار والنصف مرسيليا، الواحدة إلاّ الربع «لابروطانَيْ» وهكذا دواليك. انطلقتُ، إذًا، متعقّبة العقرب الصّغير، عقرب الدّقائق. سألتُ في كلّ مدينة أعبُرها. ووجدتُ: إنّهم في ليموج، عندما فتحت السيّدة العجوز عيْنَيْها، رأت بيتها الجديد.

لاح لي قُماشُ الخيمة. خفّفتُ من سرعتي. لم تستيقظ.

كانوا مَشدودين قليلا إلى الخلف، سيكون ممتعا لو أنّهم حرّكوا أرجلهم. أراهم الآن عبر الزّجاج العاكس، إنّهم يُشكّلون ثلاثيّا جذّابا، فريقا جميلا بحقّ: ذئبا أسنانُه صفراء، ملاكا بشعر أحمر والضّخم، لا شيء يُربِكُ الضّخم، مُحاصرا بين الاثنَيْن، عازفا واحدا من ألحان فنّ الهروب. لا، أنا مُخطئة: بل سوناتا. أخيرا، شيئا من هذا القبيل :

كريستيان بوبان

المَلاكُ الهارب

أنا مَيّتة. مِتُّ يومَيْن. استيقظتُ باكرا، أخذتُ حمّاما، تعطّرتُ واخترتُ فستانا صيفيّا، رغم أنّنا كنّا في الشّتاء. لم يكن الجوّ باردا. ثمّ إنّها رغبتي، رغبة في ارتداء قماش خفيف، مُلَوَّن. لا شيء أكثر حزنا من أن يرتدي الإنسانُ دائما «كما ينبغي». لا شيء أكثر إحباطا من هؤلاء الذين لا يقولون أشياء مغايرة أو يقومون بأعمال «مُختلفة». كان والِدا رومان هكذا، تلميذَيْن نجيبَيْن، يسردان حياتهما مثل درس يحفظونه عن ظهر قلب، دون ارتكاب خطأٍ بسيط. لا أعرف ما الأبشع، عدم تصالح الإنسان مع العالم أم تكيّفه مع كلّ شيء، المجانين أم الأسوياء كما يُقال. أعرف أنّي أخشى المجانين على نحو أقل، أعتقد أنّهم أقلّ خطرا.

نحتاجُ إلى أن نعيشَ حياتَيْن في واحدة، بدَمَيْن في قلوبنا، السّعادة مع الألم، الضّحكُ مع الظّلال، جوادَيْن لعربة واحدة، كلٌّ منهما يسحبُ من جانبِه بسرعة مجنونة. هكذا نمضي، فرسانا، فوق دروب ثلجيّة، بحثًا عن المنعَطَفِ الصّحيح، بحثًا عن الفكرة الصّائبة، حيث يحرقنا الجمالُ أحيانا، كغصن واطئ يصفَعُ وَجهنا، ويَعَضُّنا أحيانا، كذئب رائع يرتقي إلى حُنجرتنا.

كريستيان بوبان

ISBN 978-603-91478-5-5

WWW.PAGE-7.COM